الجزء الثاني

العهد المكي

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - مثل من ثبات النبي ﷺ
(شكوى قريش لأبي طالب)

لقد كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الله سرًا في بداية بعثته إلى أن اجتمع حوله عدد من أصحابه فأمره الله تعالى بأن يجهر بالدعوة ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] وأمره بأن يبدأ بإنذار أقاربه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فأنذر وبشر وجمع بين الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر ، الدعوة إلى عبادة الله وحده والتخلق بمكارم الأخلاق ، والدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام التي هي أعظم المنكر وكذلك التخلي عن مساويء الأخلاق .

فلما عاب أصنام المشركين وسفه أحلامهم بعبادتها عرفوا أنه لن يَبْقَى على ما هو عليه من دينه ويتركهم على ماهم عليه من المنكر فناصبوه العداء وحاولوا تفريق المؤمنين بدعوته بكل ما أوتوا من قوة وحيلة .

ولما رأوا صلابة إيمان أتباعه وأن أمره صار ينتشر بين جميع طبقات المجتمع بسرعة وقوة حاولوا التأثير عليه ليترك دعوته أو يغير من أسلوبها في النكير عليهم وتسفيه أحلامهم . . حاولوا ذلك بالترغيب أحياناً وبالترهيب أحياناً أخرى ولكن حال دون وصولهم إلى أغراضهم صلابته في إيمانه وعطف عمه أبي طالب عليه ودفاعه عنه وتهديده لقريش إن وصلوا إليه بالأذى .

فلما رأى كفار قريش أن محمداً ﷺ لن يهون أمام تهديداتهم ولن يلين أمام إغراءاتهم وأن عمه أبا طالب قد قام دونه وحماه ، وأن أتباعه يتمسكون بدعوته بقوة ويزيد عددهم بسرعة ذهب بعض أشرافهم إلى عمه أبي طالب لبيان أمره والشكوى منه .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه [1] وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون .

وحَدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء ، فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايُعتبهم [2] من شيء انكروه من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدبَ عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب - وذكر أسماءهم - فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا

---

(١) أي شق ذلك عليهم .

(٢) أي لايزيل عتبهم بالرجوع عما أنكروه .

وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه .

قال : ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ، ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضاً عليه ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يَهلَك أحد الفريقين - أو كما قالوا - ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا خذلانه .

قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حُدِّث أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له فَأَبْقِ عليّ وعلى نفسك ولاتُحَمِّلني من الأمر ما لا أطيق .

قال : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه

فيه بَدَاء [1] وأنه خاذله ومُسْلِمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال له رسول الله ﷺ : ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته

قال : ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ، ثم قام ، فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخي ، قال : فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبداً [2] .

وأخرجه الأئمة البخاري في التاريخ الكبير والحاكم والبيهقي ، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني وأبي يعلى بنحوه ، كلهم من حديث عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه أن النبي ﷺ حلَّق ببصره إلى السماء فقال : فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة ، فقال أبو طالب : والله ما كذَّبتُ ابن اخي قط فارجعوا .

---

(١) أي ظهر له فيه رأي جديد .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦١ - ٢٦٤ .

وقال الحافظ الهيثمي : ورجال أبي يعلى رجال الصحيح [1] وذكره الحافظ ابن حجر وقال : هذا إسناد صحيح [2] .

في هذا الخبر بيان لشدة المواجهة وعنف المقاومة التي كان رسول الله ﷺ يلقاها من قومه ، حيث استخدم أشراف قومه مختلف الوسائل للتأثير على عمه أبي طالب ليرفع عنه حمايته ، فذكَّروه بشرف الآباء والأجداد وهو من المقتنعين بالتمسك بما عليه الأسلاف وذكروه بقدسية الآلهة وهو ممن يعظمونها ، ثم هددوه بالحرب بينهم وبينه وهو ممن يكره ذلك ، كما حاولوا التلطف معه بالثناء عليه فذكروا شرفه ومنزلته فيهم ليؤثروا عليه فيستجيب لشكايتهم .

ولقد كان موقفاً صعباً ومحرجاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقع عمه الذي ناصره وحماه في هذا المأزق المحرج ، حيث بقي أبو طالب في حيرة من أمره فهو لا يريد أن يبادئَ قومه بالعداء ولكنه أيضاً لا يريد أن يُسْلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا أن يخذله ، ولكن إخراج عمه من هذا المأزق يقتضي أن يتنازل عن دعوته وأن يوافق الكفار على تعظيم الأصنام وتفخيم ميراث الآباء وهذا أمر مستحيل ، لذلك كان موقف النبي ﷺ حازماً وحاسماً حينما استدعاه عمه وفاوضه

---

(١) التاريخ الكبير ٧/ ٥١ رقم ٢٣٠ ، المستدرك ٣/ ٥٧٧ ، دلائل النبوة للبيهقي ، ٢/ ١٨٦ - ١٨٧ ، مجمع الزوائد ٦/ ١٤ .

(٢) المطالب العالية ٤ / ١٩٢ رقم ٤٢٧٨ .

في التنازل عن دعوته الكاملة إبقاء عليه وعلى نفسه ، حيث بين لعمه أن هذا مستحيل كاستحالة إنزال الشمس والقمر ووضعهما في يديه صلى الله عليه وسلم .

وإن هذا لموقف عظيم من رسول الله ﷺ حيث وقف وهو في قلة من أنصاره يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم وغناهم ومكانتهم العالية في العرب ، وقد بين صلابته في التمسك بهذا الدين ودعوة الناس إليه مهما تكن الظروف ، ومهما وُضع في طريقه من عقبات ، وأنه على استعداد كامل لأن يقدِّم نفسه رخيصة في سبيل هذا الدين ، فضرب بذلك المثل العالي لأمته والقدوةَ الكاملة للدعاة إلى الله تعالى في تسخير نفسه بكل طاقاتها لخدمة دعوته ولو أدى ذلك إلى هلاكها .

فليسر على دربه المؤمنون المتقون في بذل الجهد في الدعوة وتحمل كل ما يواجههم من صعوبات ونكبات فإن لهم فيه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة .

هذا وإن تلك الدموع الغالية التي تحدرت من عيني رسول الله ﷺ تبين لنا خطورة الموقف وصعوبة الأمر عليه ، حيث كان بين أمرين كل واحد منهما شاق على نفسه ، لكن إيقاع عمه في الحرج أهون عليه كثيراً من التنازل عن دعوته ، بل لا مقارنة بين الأمرين لأن أحدهما صعب والآخر مستحيل .

وإنه من أجل الخروج من هذا المأزق وإصدار القرار السامي الذي لاخيار له فيه فإنه لابد لصاحب النفس الكريمة التي بلغت نهاية الكمال البشري في السمو الأخلاقي أن يعبر عن أساه وأسفه لصاحب المعروف الكبير عليه أن أوقعه في حرج كبير وأدخله في معركة حامية مع قومه ، في الوقت الذي كان يتوسل إليه أن لايوقعه في ذلك ، فكانت الدموع الزكية أبلغ تعبير عن ذلك الأسى والأسف .

إن دموع فحول الرجال الأشداء غالية ، وتكون أشد غلاء حينما تنحدر من عيني من بلغ الكمال في كل معاني الرجولة ، وإن غلاء تلك الدموع ليصور لنا جسامة المسئولية التي تحملها رسول الله صلى الله عليه وسلم واستهان من أجلها بكل ما تعارف عليه البشر من الأخلاق والأعمال التي تتعارض معها .

* * *

٢ - مثل من تضحية الصحابة بأنفسهم في سبيل الله

(استعداد الزبير للدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن عروة بن الزبير أنه قال : إن أول رجل سل سيفه في الله الزبير بن العوام ، نفخة نفخها الشيطان : أُخذ رسول الله [١] فخرج الزبير يشق الناس بسيفه والنبي ﷺ بأعلى مكة ، قال مالك يازبير ؟ قال : أُخبرت أنك أُخِذْتَ قال : فصلى عليه ودعا له ولسيفه [٢] .

فهذا مثال للشجاعة والتضحية بالنفس ، فحينما سمع الزبير صوتاً يفيد بأن النبي ﷺ قد أُخذ حمل سيفه وخرج يبحث عنه لينقذه ويحميه ، وقد جاء في هذه الرواية أن ذلك الصوت نفخة من الشيطان ، وذلك ليرعب المسلمين ويوقعهم في الاضطراب والحيرة .

وقد دعا له النبي ﷺ ولسيفه على هذه التضحية النبيلة ، وما أبلغه من جزاء ، وما أنفسه من مكافأة !

ولقد ظل الزبير بن العوام رضي الله عنه حياته كلها مثالاً عالياً للشجاعة والمغامرات الجريئة في سبيل خدمة هذا الدين العظيم .

---

(١) يعني أنهم سمعوا صوتاً يقول ذلك وكان من الشيطان .

(٢) فضائل الصحابة ٢/ رقم ١٢٦٦ ، وقد صحح المحقق الدكتور وصي الله إسناده إلى عروة بن الزبير .

وأخرجه الحاكم بإسناده عن عروة وذكر مثله ، وسكت عنه هو والذهبي - المستدرك ٣/ ٣٦٠ - ٣٦١ .

٣ - نموذج من الجرأة في قول الحق والثبات على الشدائد

(ابن مسعود يتحدى الكفار)

حينما يكون الإيمان بالله تعالى قوياً يقدم صاحبه على تجشم الصعاب واقتحام المخاطر من أجل نصرة هذا الدين الذي آمن به وخالطت محبته شغاف قلبه ، فتبرز قوة الإيمان ، وتتفوق - رغم قلة العدد وضعف الإمكانات المادية - على كثرة العدد ووفرة القوة المادية .

فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أحد علماء الصحابة الذي انتشر الإسلام على أيديهم وخرَّجوا أجيالاً من العلماء بالدين ، نجده يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم ودولتهم ، وهو الضعيف من ناحية العشيرة ، فيجهر بالقرآن أمامهم في المسجد الحرام ، ولم يكن يستطيع الجهر به آنذاك إلا رسول الله ﷺ لقلة عدد المسلمين وشدة الضغط عليهم من الكفار .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله في بيان ذلك : وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال : كان أول من جهر بالقرآن - بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة - عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال : اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ماسمعت قريش هذا القرآن يُجْهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا ، فقالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد

رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعوني فإن الله سيمنعني .

قال : فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ رافعاً بها صوته ، ﴿ **الرحمن ، علّم القرآن** ﴾ قال : ثم استقبلها يقرؤها .

قال : فتأملوا فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ - وكانت هذه كنيته - قال : ثم قالوا : إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا ، قالوا : لا ، حسبك أن قد أسمعتهم ما يكرهون (١) .

وهكذا نجد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في أول الإسلام هو أول من جهر بالقرآن الكريم بمكة المكرمة بعد رسول الله ﷺ ، بالرغم من كونه لاعشيرة له تحميه من أذى المشركين ، ونجد في هذه

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٠ .
وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن حميد عن سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن إسحاق به وذكر مثله - تاريخ الطبري ٢/ ٣٣٤ .

القصة أن إخوانه المؤمنين يذكّرونه بذلك ، ويبينون له خطورة الأمر بالنسبة له ، ولكنه يصر على أن يجهر بالقرآن أمام زعماء قريش ، ويقول لإخوانه : دعوني فإن الله سيمنعني ، ونجد عبد الله بن مسعود بهذا الموقف يضرب مثلاً عاليا في التوكل على الله تعالى .

وإذا عظم ذكر الله سبحانه في قلب المؤمن هان عنده كل شيء ، فقد هان هؤلاء الكفار على ابن مسعود بالرغم من شراستهم وتحزبهم ضد دعوة الحق ، فتحداهم بما يكرهون ، وذلك لأن وجود الإيمان بالله عز وجل في قلبه كانت نسبته عالية جداً ، بينما كان وجود هيبة الكفار في قلبه ضئيلاً جداً ، فأقدم على مواجهتهم بذلك .

وبهذا نعلم أن الرهبة من أعداء الإسلام تتضخم في قلب المسلم بقدر تضاؤل وجود الإيمان بالله تعالى في قلبه ، بينما تتضاءل رهبته منهم بقدر قوة إيمانه بالله تعالى وهيمنة هذا الإيمان على مشاعره وسلوكه .

وحيث إن ثقة ابن مسعود رضي الله عنه بالله كانت عالية ، وتوكله عليه كان عظيماً ، فإن الله تعالى منعه من الكفار فلم يقتلوه بالرغم من أنه لا عشيرة له تحميه ، وإنما اكتفوا بتفريغ غضبهم منه بضربه على وجهه ، ورجع منهم مظفراً منصوراً ، قد نال بغيته بالجهر بينهم بتلاوة كتاب الله تعالى .

وقد تكَوَّن لديه رضي الله عنه من هذا الموقف الشجاع قدر عال من الإيمان بالله تعالى ، إلى جانب ما تضاءل في نفسه من هيبتهم ،

فأصبح مستعداً لتحديهم مرة أخرى ، حيث قال لأصحابه ، ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا .

وهكذا نجد أن الشجاعة في قول الحق تقوي الإيمان بالله تعالى ، وتضعف من هيبة الأعداء ومكانتهم .

وبتأمل هذه القصة نجد مثلاً واضحاً للحجر الفكري الذي فرضه زعماء الكفار على المسلمين بمكة ، حيث لم يكن أحد منهم يجرؤ على الجهر بالقرآن غير رسول الله ﷺ ، وهذا دليل على إفلاس حجتهم ، وضعف معنويتهم ، حيث لا يستطيعون مقاومة الحجة بمثلها ، فيلجئون إلى محاولة الحجر على الحق بالقوة باعتبار أنهم كانت لهم الهيمنة آنذاك على مكة .

وهذه طريقة فاشلة ، فإن الحق لابد أن يظهر مهما حاولوا تطويقه بما لديهم من قوة وجبروت ، وقد ظهر الحق شيئاً فشيئًا إلى أن قضى على آخر معقل من معاقل الباطل ، وصارت الدولة للإسلام والمسلمين ، ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (١) .

﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ (٢) .

* * *

(١) سورة التوبة آية ٣٢ .
(٢) سورة الاسراء آية ٨١ .

٤ - إسلام أبي ذر وتحدي الكفار

ن ما كان من أبي

أول الإسلام .

طرق ، ومنها ما

أ… بلغ أبا ذر مبعث

ال… إلى هذا الوادي

فا… سماء فاسمع من

قو…

فقا… رجع إلى أبي ذر

… ر ، فقال : ما

شفي…

… ، فأتى المسجد

فالت… ى أدركه بعض

الليل … ، فلما رآه تبعه

---

(١) اس…

(٢) معطوف على الهاء في رأيته وهو مضمن معنى السماع يعني وسمعته يقول كلاماً، من باب قولهم علفتها تبناً وماء بارداً يعني وسقيتها ماء بارداً (الفتح ٧/ ١٧٤) .

(٣) يعني قربة قديمة .

فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى أصبح ثم احتمل قريبته وزاده إلى المسجد فظل ذلك اليوم ، ولايرى النبي ﷺ ، حتى أمسى فعاد إلى مضجعه ، فمر به علي فقال : ما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه ، فذهب به معه ولايسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك ، فأقامه علي معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد ؟

قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدَنِّي فعلت ، ففعل فأخبره ، فقال : فإنه حق وهو رسول الله ﷺ فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ، ففعل فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه ، فقال له النبي ﷺ : « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري » فقال : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم .

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه ، فأتى العباس فأكب عليه فقال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم ؟ فأنقذه منهم ، ثم عاد

من الغد لمثلها ، وثاروا إليه فضربوه فأكب عليه العباس فأنقذه [1] .

في هذا الخبر بيان للرعب الشديد الذي أثاره زعماء الكفار في مكة ، حتى أصبح القادم لا يستطيع أن يسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بحذر شديد كما فعل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، وأصبح المسلمون لايستطيعون أن يصحبوا القادمين ظاهراً ، بل لابد من الاحتيال لإخفاء هذا الاصطحاب كما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وكان أبو ذر مضطرا إلى الاستخفاء حتى يحصل على بغيته من الوصول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يمنع من ذلك ، فلما وصل إليه وآمن به كان قوياً في إعلان إسلامه ، لأنه لايخشى على نفسه ، وإنما كان يخشى أن يمنع من سماع دعوة الحق .

كما أن في هذا الخبر بيان اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بتلقي الغرباء لدعوتهم إلى الإسلام سراً ، وذلك ظاهر في متابعة علي بن أبي طالب لأبي ذر رضي الله عنهما خلال ثلاثة أيام ، فقد جعل أمر هذا الوافد الغريب من اهتمامه حتى أوصله في اليوم الثالث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) صحيح مسلم رقم ٢٤٧٤/١٣٣ كتاب فضائل الصحابة ، وصحيح البخاري رقم ٣٨٩١ ، كتاب مناقب الأنصار .

وهذا يعني أن هذا السلوك جزء من المنهج الدعوي الذي تلقوه من رسول الله ﷺ ، وطبقوه تطبيقاً دقيقاً كما جاء في هذا الخبر .

وهكذا رأينا أبا ذر رضي الله عنه يجهر بإيمانه بهذا الدين أمام أعدى أعدائه آنذاك بعدما اقتنع أنه دين الحق .

وهذه نفحة من نفحات قوة الإيمان أبت إلا أن تبدو في صورة ظاهرة من الاعتزاز بالإسلام ، والتحدي القوي لأعدائه .

إن إعلان الإسلام بهذه الصورة من رجل ليس له عشيرة ولا حلفاء في مكة أمام أعداء يهيمنون على الوضع القائم آنذاك ويعذبون المسلمين . . إن هذا الإعلان سلوك جريء يَشِفُّ عن محرك قوي من الإيمان .

وإن إعادة التحدي في اليوم الثاني لأكثر إعجابا وإثارة لأن ترتب الأذى على التحدي الأول أمر محتمل ؛ وإن كان هو المرجح ، أما ترتبه على التحدي الثاني فإنه مؤكد ، ويترجح تضاعفه ، وهذا أمر يدل على أن أبا ذر قد قصد إذلال الكفار الذين يعتزون بقوتهم وجمعهم ويستأسدون على الضعفاء .

وإنه إذا كان المسلمون في فترات ضعفهم وقلتهم بحاجة إلى المداراة والاستخفاء فإن بروز أفراد منهم يعلنون دعوة الحق له أثره البالغ في توهين قوى الأعداء ، وتقوية إيمان المسلمين وربط قلوبهم ،

وكون النبي ﷺ لم ينكر على أبي ذر وأمثاله ممن جهروا بإسلامهم أو بالدعوة إلى الإسلام دليل على شرعية ذلك ما لم يؤثر على مصلحة الدعوة .

وقول رسول الله ﷺ لأبي ذر « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري » مثل لما تقدم ذكره في خبر إسلام ضماد الأزدي من اهتمام النبي ﷺ العظيم بنشر دعوته وإشعار المسلمين بواجبهم نحو ذلك .

وقد جاء في رواية أخرى أخرجها الإمام مسلم ماهو أبلغ في الدلالة على ذلك ، وذلك في قوله ﷺ لأبي ذر « إنه قد وُجِّهَتْ لي أرض ذات نخل لا أُراها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عني قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم ! » .

قال أبو ذر : فأتيت أُنيْسا فقال : ماصنعت ؟ قلت : صنعت أني أسلمت وصدقت ، قال : ما بي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت ، فأتينا أُمَّنا فقالت : ما بي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمت وصدقت ، فا حتملنا حتى أتينا قومنا غفارا ، فأسلم نصفهم ، وكان يؤمهم « أيْماءُ بن رَحَضَة الغفاري » وكان سيدهم ، وقال نصفهم : إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقي »[1] .

---

(١) صحيح مسلم رقم ٢٤٧٣ ، كتاب فضائل الصحابة .

وهكذا أسلمت هذه القبيلة بدعوة أبي ذر رضي الله عنه حيث توجه بدعوة النبي ﷺ ووضع نصب عينيه توجيهه السامي بتبليغ قومه ، وكان له ولقومه مواقف مشرفة في الدعوة والجهاد .

هذا وقد جاء في هذا الخبر أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أكبَّ على أبي ذر رضي الله عنه لإنقاذه ، وذكَّر المشركين بما يخشاه من انتقام قبيلة غفار منهم بقطع طريق تجارتهم إلى الشام .

وهذا مسلك موفق مع هؤلاء الكفار ، وفق الله تعالى إليه العباس ليتم إنقاذ أبي ذر ، حيث خاطب قومه بالوازع الذي يفهمونه ويقدرونه ، وهو وازع المصالح التجارية التي تقوم عليها حياتهم .

وهذا درس بليغ ينبغي للمسلمين وعيه والاستفادة منه .

* * *

٥ – مواقف عالية من صبر النبي ﷺ على الأذى

لقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو إلى الله في مكة إلى أذى شديد من زعماء الكفار .

ولقد كان قوي الشخصية شجاعاً في مواجهة هؤلاء الزعماء بالرغم مما كانوا عليه من قوة معنوية ، ومكانة عالية بين العرب ، فقد كانوا يقتلون بنظراتهم الحادة وألسنتهم السليطة كل ضعيف خوار ، وكان العرب جميعاً يحترمونهم ويقدرون رأيهم لمكانتهم من خدمة بيت الله الحرام وجواره .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم واجههم بما يكرهون حينما أصروا على باطلهم ، وتحداهم بما عجزوا عن مقاومته حتى أسقط سمعتهم الوهمية القائمة على الدجل واستغلال غفلة العقول .

فلم يكن منهم إلا أن ضاعفوا من كيدهم وأذاهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين به .

وقد جاءت روايات في بيان ما تعرض له رسول الله ﷺ من الأذى، فمن ذلك :

١ – ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله قال : حدثي يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا

يظهرون من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر ذلك الرجل قط ، قد سفه أحلامنا وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا .

فبينما هم في ذلك إذا طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول . قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ : ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح .

قال : فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك لَيَرْفَؤُه بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فو الله ما كنت جهولاً .

قال : فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في

الحِجْر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله ﷺ : نعم أنا الذي أقول ذلك .

قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه . قال : فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه ، وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ! ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط [1] .

وأخرجه أبو يعلى والطبراني بنحوه وفيه أن أبا جهل قال : يا محمد ما كنت جهولاً ، فقال رسول الله ﷺ : « أنت منهم » .

ذكره الهيثمي وقال : وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن ، وبقية رجال الطبراني رجال الصحيح [2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٨٩ ، السير والمغازي / ٢٢٩ .
وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق وذكره مثله - مسند أحمد ٢/ ٢١٨ - .
وذكره الهيثمي وقال : وقد صرح ابن إسحاق بالسماع وبقية رجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٦ - .
وأخرج الإمام البخاري نحوه مختصراً - صحيح البخاري رقم ٣٦٧٨ ، كتاب فضائل الصحابة - .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٦ .

٢- أخرج الحافظ أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر أنهم قالوا لها : ما أشدُّ ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسول الله ﷺ ومايقول في آلهتهم فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فقاموا إليه وكانوا إذا سألوا عن شيء صَدَقهم فقالوا : ألست تقول كذا وكذا ؟ فقال : بلى ، فتشبثوا به بأجمعهم .

فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقيل له : أدرك صاحبك فخرج من عندنا وإن له غدائر [(١)] فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ قال : فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام [(٢)] .

وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى هذه الرواية وقال : ولقصة أبي بكر هذه شاهد من حديث علي أخرجه البزار من رواية محمد بن علي عن أبيه أنه خطب فقال : من أشجع الناس ؟ فقالوا : أنت .

قال : أمَا إني ما بارزني أحد إلا أنصفت منه ، ولكنه أبو بكر ، لقد

---

(١) أي إن شعر رأسه مفرق إلى غدائر .
(٢) مسند الحميدي ١/ ١٥٥ رقم ٣٢٤ ، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى أبي يعلى والحميدي - المطالب العاليه ٤/ ١٩٢ ، رقم ٤٢٧٩ - وحسن إسناده - فتح الباري ٧/ ١٦٩ - ووثق البوصيري رجاله - هامش المطالب العاليه ٤/ ١٩٣ - .

رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش ، فهذا يجره وهذا يتلقاه ، ويقولون له : أنت تجعل الآلهة إلها واحدا ، فو الله مادنا منه أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا ، ويقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله .

ثم بكى عليّ ثم قال : أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقل عليّ : والله لساعة من أبي بكر خير منه ، ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا يعلن إيمانه (١) .

وأخرج الإمام أحمد وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله فقالوا من هذا : فقالوا : أبو بكر المجنون .

ذكره الهيثمي وقال : ورجالهما رجال الصحيح (٢) .

٣ - وأخرج الحافظ ابن سيد الناس من حديث عروة بن الزبير قال : حدثني عمرو بن عثمان بن عفان عن أبيه عثمان بن عفان قال : أكثر ما نالت قريش من رسول الله ﷺ أني رأيت يوما - قال عمرو :

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٦٩ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٧ .

وأخرجه الحاكم من حديث أنس رضي الله عنه وقال : صحيح على شرط مسلم ، وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٦٧ -

فرأيت عيني عثمان بن عفان ذرفتا من تذكر ذلك - قال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر ، وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن أبي معيط ، وأبو جهل بن هشام ، وأميه بن خلف ، فمر رسول الله ﷺ فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره ، فعُرِف ذلك في وجه النبي ﷺ ، فدنوت منه حتى وسَطته ، فكان بيني وبين أبي بكر ، وأدخل أصابعه في أصابعي حتى طفنا جميعا ، فلما حاذاهم قال أبو جهل : والله لانصالحك ما بَلَّ بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، فقال رسول الله ﷺ : أنَّى ذلك !

ثم مضى عنهم فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه فدفعته في صدره فوقع على استه ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط ، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف ، ثم قال : أما والله لاتنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلا .

قال عثمان : فوالله ما منهم رجل إلا أخذه أفْكل [1] ، وهو يرتعد ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : بئس القوم أنتم لنبيكم ، ثم انصرف إلى بيته ، وتبعناه خلفه حتى انتهى إلى باب بيته ، ووقف على السُّدَّة ثم أقبل

---

(١) الأفكل بفتح الهمزة وسكون الفاء الرعده - القاموس المحيط - .

علينا بوجهه فقال : أبشروا فإن الله عز وجل مظهرٌ دينه ، ومُتِمٌّ كلمته وناصر نبيه ، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله بأيديكم عاجلا .

قال : ثم انصرفنا إلى بيوتنا ، فو الله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا [1] .

وذكر الحافظ ابن حجر في شرح حديث عبد الله بن عمرو السابق من رواية الزبير بن بكار والدارقطني في « الأفراد » من طريق عبد الله بن عروة بن الزبير ، عن عروة قال : حدثني عمرو بن عثمان عن أبيه عثمان . . وذكر أوله ، ثم قال : « فذكر قصة يخالف سياقها حديث عبد الله بن عمرو هذا ، فهذا الاختلاف ثابت على عروة في السند ، ولكن سنده ضعيف ، فإن كان محفوظاً حمل على التعدد ، وليس ببعيد لما سأبينه » ثم قارن بين الروايتين وقال : وهذا يقوي التعدد [2] .

وهذا يعني أنه إن كان خبراً واحداً فالمعتبر هو حديث عبد الله بن عمرو لأنه أقوى إسناداً ، وإن حمل على تعدد القصة وهو الذي رجحه الحافظ ابن حجر فإن ضعفه محتمل للتقوية ، وهكذا أورده الحافظ ابن سيد الناس على أنه خبر مستقل .

---

(١) عيون الأثر ١/ ١٠٣ .

(٢) فتح الباري ٧/ ١٦٨ .

٤ - وأخرج الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ ذات يوم وهوجالس حزيناً قد خُضب بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة ، قال فقال له : مالك ؟ قال فقال له : فعل بي هؤلاء وفعلوا ، قال فقال له جبريل : أتحب أن أريك آية ؟ قال نعم ، قال : فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال : ادع تلك الشجرة ، فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه ، فقال : مرها فلترجع ، فرجعت إلى مكانها ، فقال رسول الله ﷺ : حسبي [١] .

من هذه النصوص نعرف مدى ما كان المشركون يضمرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عداوة ، حيث كانوا يجتمعون على محاربته ويوصي بعضهم بعضا بالوقوف في وجهه ، ويلوم بعضهم بعضا على التقصير في مباداته بالعداء .

وحينما يكون العدو متفرقا أمره ويقاوم أفرادُه الدعوة الوافدة وهم فرادى فإن أمره يكون ميسورا إذ بإمكان صاحب الدعوة أن يصل إلى إقناع بعضهم بدعوته وأن يتفادى عداوة الآخرين بكلمة مودة أو برد حازم يسكت عدوه ، فأما حين يجتمع أفراد العدو على صاحب الدعوة فإن موقفه يكون حرجا أمامهم إذ أن السيادة في مثل هذه الاجتماعات تكون

---

(١)مسند أحمد ٣/ ١١٣ .
وذكره الحافظ ابن كثير وقال : هذا إسناد على شرط مسلم - البداية والنهاية ٦/ ١٢٨ - ١٢٩ - وصححه الحافظ الذهبي - تاريخ الإسلام / السيرة ١٣٠ -

للدهماء الذين تحركهم عادةً العصبيةُ القبلية والتمسك بالموروثات وإن كانت تتنافى مع العقل السليم ، ولايتمكن صاحب الدعوة - والحالة هذه- من مخاطبة أصحاب العقول المفكرة .

وقد كان زعماء قريش الذين تغلب هذه الصفات على أصحاب الرأي منهم هم الذين يحتلون ساحات المسجد الحرام ولايتركون الفرصة لأصحاب العقول المفكرة التي تميل إلى التحرر من الأوهام والخرافات التي لاتنسجم مع العقول السليمة . . لايتركون لهم الفرصة ليلتقي بهم رسول الله ﷺ أو يسمعوا كلامه فقد قاموا بالحَجْر الفكري على مجتمعهم وطبقوا ذلك بصرامة فائقة حتى كان من يريد السماع من النبي ﷺ يضطر إلى التسلل في الخفاء .

ومن هنا كان موقف النبي ﷺ صعباً للغاية في معاملتهم وكان لابد له أحياناً أن يخرج عن حلمه المعهود ليسلك معهم طريق الحزم والمجابهة كما هو الحال في هذا الخبر لأن الذين يواجهونه يخاطبونه بعواطفهم الثائرة الحاقدة ولايخاطبونه بعقول متزنة تدرك مايُلقَى عليها من قول وتفكر فيه .

فلما قال لهم : أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح استكانوا وخضعوا له .

إن اجتماعهم على الباطل يلغي تفكيرهم السليم ويجعلهم ينطلقون من الحماس المتأجج من العواطف الثائرة ، وغالباً مايكون التفكير والتوجيه من فرد أو أفراد يتزعمون أفراد المجتمع ، فيبقى أغلب الأفراد تابعين لهؤلاء الزعماء من غير تفكير في صواب مادعوهم إليه من خطئه ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى التفكير المتأمل المتجرد عن فكر الجماعة الذي يهيمن عادة على الأفراد حيث يقول تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (١) .

فإذا خلا الإنسان بنفسه ثم تفكر في أمر النبي ﷺ فإنه سيلغي من حسابه اتهامه بالجنون وغيره مما ألصقه به الأعداء ، وكذلك إذا خلا بصاحبه وقارنا بين النبي ﷺ ومن عُرف عنهم الإصابة بهذه التهم ، لأن الفكر -والحال هذه- ينطلق من العقل المتجرد من العاطفة والتبعية للقوى المهيمنة على العقول فلابد أن يصل إلى النتيجة الصحيحة الموافقة للعقل السليم .

وحينما يخلو الإنسان إلى فكره يخبو نداء العاطفة تدريجياً ويرتفع نداء العقل فيصلُ الإنسان إلى الحكم الصحيح العادل .

---

(١) سورة سبأ آية ٤٦ .

وفي هذه الأخبار مواقف رائعة لأبي بكر رضي الله عنه ، حيث وقف دون النبي ﷺ ودافع الناس عنه وحماه بنفسه حتى انصرف عنه أعداؤه ، وفيها بيان لشدة الأذى الذي تحمله في سبيل ذلك ، وهذا دليل على قوة إيمانه وشجاعته النادرة واستهانته بنفسه في سبيل الدفاع عن رسول الله ﷺ .

وفي أحد هذه الأخبار شهادة على شجاعة أبي بكر البالغة يقدمها بطل كبير من أبطال الإسلام هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي لم تنتكس له راية ولم يقف له أحد في موقف .

وإنما يدرك فضل أهل الفضل من شاركهم في هذا الفضل ، حيث شهد له بالإقدام على مدافعة المشركين وإنقاذ النبي ﷺ من بين أيديهم بينما لم يجرؤ غيره على ذلك ، وإن هذا الموقف بقدر مايصور شجاعة أبي بكر وتضحيته فإنه يصور فظاعة المشركين وعنفهم في الانتقام وقوة شخصياتهم التي أوقفت المؤمنين حتى عن الدفاع عن رسول الله ﷺ .

وإن من مزايا هذه الشهادة الكريمة أنها تم إعلانها على ملأ من الناس ، وفي وقت بدأ فيه بعض الموتورين والجهال بالغضّ من شأن بعض كبار الصحابة ، فأراد علي رضي الله عنه أن يعدِّل الموازين ، وأن ينبئ الناس بأن محبتهم له يجب أن لاتطغى بحيث يترتب عليها التهوين من شأن كبار الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين .

وإننا حين نبرز حق أبي بكر وفضله كما أعلنه علي رضي الله عنهما فإننا نقدر لعلي هذا الموقف الكريم المشتمل على التواضع الجمّ والوفاء الكبير لأخوة له مضوا على درب الجهاد والدعوة .

وفي الخبر الأخير بيان لموقف عثمان رضي الله عنه حيث دفع أبا جهل عن رسول الله ﷺ حتى أوقعه على الأرض . مع ما كان يتمتع به أبو جهل من مكانة عالية بين قومه ، فرضي الله عن هؤلاء الصحابة الذين صمدوا – مع قلتهم – لأهل الباطل وهم في أوج عزهم وكثرتهم .

٥ – أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وإساف ونائلة : لو قد رأينا محمدا لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله .

فأقبلت ابنته فاطمة رضي الله عنها فقالت : هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك ، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك .

فقال : يا بنية أريني وضوءاً فتوضأ ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا : ها هو ذا وخفضوا أبصارهم وسقطت أذقانهم في صدورهم وعُقِروا في مجالسهم فلم يرفعوا إليه بصرا ولم يقم إليه رجل .

فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من التراب

فقال : شاهت الوجوه ، ثم حصبهم ، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً[1] .

في هذا الخبر بلغ الملأ من قريش القمة في التحجر الفكري حيث ضاعفوا من تهديدهم ومحاولتهم القضاء على دعوة الإسلام بالقوة ، وذلك بالقضاء على داعيها الأول ﷺ .

ولكننا نجد من رسول الله ﷺ في مقابل ذلك إصراراً أكيدا على تبليغ دعوته مهما تكن الحواجز والعوائق .

ونجد في هذا الخبر مثلا على شجاعة رسول الله ﷺ العظيمة ، حيث علم من ابنته فاطمة رضي الله عنها عن قعود المشركين له وتهديدهم إياه ، ومع ذلك خرج من بيته منفردا ودخل عليهم وهم مجتمعون ، وإن هذا الإقدام العظيم مع احتمال وقوع الضرر البالغ يعتبر قمة في التضحية والبذل من أجل دعوة الإسلام .

لقد كان الشيء الذي يهيمن على مشاعر النبي ﷺ هو التفكير في دعوته وبذل كل الطاقة في محاولة الوصول إلى قلوب الناس ، ولقد كان

---

(١) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٢٣ .
وذكره الهيثمي وقال : رواه أحمد بإسنادين ورجال احدهما رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٨ .
وأخرجه أبو نعيم من طريق ابن عباس رضي الله عنهما دلائل النبوة لأبي نعيم / ٦٠ .
وأخرجه الحاكم بنحوه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه - المستدرك ٣/ ١٥٧ .

أمر حماية النفس وسلامتها من التعرض للضرر شيئاً ثانوياً لا يأخذ له الرسول ﷺ أي اعتبار إذا تعارض مع الإقدام على تبليغ الدعوة .

٦ - وأخرج الإمام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعُه في كتفي محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم - وهو عقبة بن أبي معيط كما جاء مصرحا به في رواية مسلم الثانية - فأخذه فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه .

قال : فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر ، لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة ، فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم .

فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم وكان إذا دعا دعا ثلاثا ، وإذا سأل سأل ثلاثا ، ثم قال « اللهم عليك بقريش - ثلاث مرات » ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ، ثم قال : « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط .

قال : وذكر السابع ولم أحفظه - فو الذي بعث محمداً ﷺ بالحق

لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر [1] .

في هذه الرواية وما في معناها أمثلة للأذى الذي لقيه رسول الله ﷺ على يد الكفار في مكة مما يُقصد به الإهانة المادية بإلحاق الأذى الجسماني ، والمعنوية بتحطيم المشاعر وإغاظة النفوس ، وهي أبلغ من الحسية .

هذا وإن ما جرى من عقبة بن أبي معيط يعتبر اعتداء مهينا على أعظم رجل عرفه التاريخ ، وهو يؤدي شعائر دينه ، مما يدل على تدني مستوى أهل الباطل في معاملة أهل الحق ، وهذا علامة على توغل عداوتهم وإفلاسهم في مجال الفكر والحجة البيانية ، حيث استخدموا أيديهم وقوتهم المادية .

وإن حقد الكفار الدفين يجعلهم يتصرفون بمقتضى عواطفهم لابمقتضى عقولهم ، حيث إنهم لو راجعوا أنفسهم بعد ذلك لأنكروا عملهم ، بينما أهل الحق لا ينزلون أبدا إلى هذا ا لمستوى الهابط .

أما موقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فإنه مثال لشدة الإرهاب الذي كان يواجهه المستضعفون في مكة ، الذين لم تكن لهم عشائر تحميهم .

---

(١) صحيح مسلم رقم ١٧٩٤ ، كتاب الجهاد ، صحيح البخاري رقم ٢٩٣٤ كتاب الجهاد .

فالصحابة رضي الله عنهم يحبون رسول الله ﷺ أعظم مما يحبون أنفسهم ولكن ابن مسعود كان على يقين من أنه لن يصل إلى رسول الله ﷺ إلا وهو جثة هامدة أو ما يشبه ذلك ، فلن يتمكن من تخليصه من الأذى .

ومن هذا الخبر نفهم أن للنساء دوراً يقمن به لايستطيع الرجال أحياناً أن يقوموا به فقد استطاعت فاطمة رضي الله عنها أن تزيل الأذى عن أبيها ﷺ وأن تسب الملأ من قريش دون أن تتعرض للأذى لأن تقاليد العرب تمنعهم من الاعتداء على النساء .

وهكذا في كل زمن ينبغي للدعاة أن يستفيدوا من دور المرأة في الأمور التي تحسنها وقد لايدركها الرجال مستفيدين من الأعراف الاجتماعية التي تخدمهم .

وحينما دعا رسول الله ﷺ على الأعداء خافوا من دعوته ، وهكذا الكفار يخافون من عاقبة الدعاء في الدنيا فقط ، حيث إنهم لايؤمنون بالآخرة ، فهل يتنبه بعض المسلمين الذين لايرتدعون عن ظلم الناس إلا خوفاً من استجابة دعائهم وحلول العقوبة الدنيوية غافلين عن مواقف الحساب يوم القيامة ؟!

ومما يدل على أن النبي ﷺ قد تأثر تأثراً كبيراً مما حصل له ما جاء في رواية أخرى لهذا الخبر وفيها « ثم خرج - يعني رسول الله ﷺ - من

المسجد فلقيه أبو البَخْتَري بسوط يتخصر به فلما رأى النبي ﷺ أنكر وجهه فقال : مالك ؟ فقال النبي ﷺ خلِّ عني ، فقال : علم الله لا أخلي عنك أو تخبرني ما شأنك فلقد أصابك شيء ، فلما علم النبي ﷺ أنه غير مُخَلٍّ عنه أخبره فقال : إن أبا جهل أمر فطُرِح عليّ فرث ، فقال أبو البختري : هلمَّ إلى المسجد .

فأتى النبي ﷺ وأبو البختري فدخلا المسجد ثم أقبل أبو البختري إلى أبي جهل فقال : يا أبا الحكم أنت الذي أمرت بمحمد فطُرح عليه الفرث ؟ قال : نعم ، قال : فرفع السوط فضرب به رأسه ، قال : فثار الرجال بعضها إلى بعض ، قال وصاح أبو جهل ، ويْحكم هي له ، إنما أراد محمد أن يلقي بيننا العداوة وينجو هو وأصحابه .

ذكره الهيثمي وقال : رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه الأجلح بن عبد الله الكندي وهو ثقة عند ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره [1] .

وأبو البَخْتَري هو ابن هاشم بن الحارث بن أسد ، وأمه من بني هاشم ، وكان من فريق المعتدلين من الكفار الذي تميزوا بوضوح بعد نقض صحيفة المقاطعة وكان من الذين نادوا بنقضها .

٧ - ومن أنواع الأذى التي لقيها رسول الله ﷺ من الكفار ماذكره

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٨ .

الصالحي قال : روى ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير وعبد الرزاق في المصنف وابن جرير وابن المنذر عن مِقْسَم مولى ابن عباس كلاهما عنه ، أن أبا معيط - وفي رواية عقبة بن أبي معيط - كان يجلس مع رسول الله ﷺ بمكة ولا يؤذيه وكان رجلا حليما ، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذَوْه وكان لأبي مُعيط خليل غائب عنه بالشام .

وفي رواية أنه أمية بن خلف فقالت قريش : صبأ أبو مُعَيْط .

وفي رواية وكان لايقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا أهل مكة كلهم فصنع طعاما ثم دعا رسول الله ﷺ إلى طعامه فقال : ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .

فقال : اطْعَمْ يا ابن أخي . فقال : ما أنا بالذي أفعل حتى تقول . فشهد بذلك وطَعِم من طعامه .

وقدم خليله من الشام ليلاً فقال لامرأته مافعل محمد مما كان عليه ؟ فقالت : أشَدَّما كان أمراً . فقال : مافعل خليلي أبو معيط ؟ فقالت : صبأ . فبات بليلة سوء فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه فلم يرد عليه التحية فقال : مالك لاترد عليّ تحيتي . فقال : كيف أردّ عليك تحيتكِ وقد صبأت ! قال : أوَقَدْ فَعلَتْها قريش ؟ لا والله ما صبأت ولكن دخل عليَّ رجل فأبى أن يأكل من طعامي إلا أن أشهد له . فاستحييتُ أن

يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له قال : ما أنا بالذي أرضى عنك حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلم من الشتم .

ففعل ، فلم يزد النبي ﷺ أن مسَح وجهه من البزاق [1] .

وذكره السيوطي من رواية أبي نعيم وصحح إسناده ، وقد جاء في آخره : وقال : إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضْربْ عنقك صبراً ، فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج ، وقال : قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً فقالوا : لك جمل أحمر لايدرك ، فلو كانت الهزيمة طرْتَ فخرج معهم ، فلما هُزم المشركون وحل به جمله في جُدَد [1] من الأرض ، فأخذ أسيراً فضرب النبي صلى الله عليه وسلم عنقه صبراً [2] .

وذكر ابن إسحاق الخبر مختصراً ونسب هذا الفعل إلى عقبة بن أبي معيط وذكر أن صاحبه الذي أضله هو أمية بن خلف وأن الله عز وجل أنزل فيهما قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [**الفرقان** : ٢٧ – ٢٩] [3] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٦٨ .

(١) الجُدَد هي الطرق .

(٢) الخصائص الكبرى ١/ ٤١٥ – ٤١٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٨ ، وذكره السيوطي في تفسير هذه الآية وصحح إسناده – الدر المنثور ٥/ ٦٨ – .

وهكذا كان أهل الباطل يتضامنون في باطلهم ويشددون النكير على من ألان الجانب لرسول الله ﷺ ، وذلك لتشديد الحصار عليه وعلى دعوته والإمعان في الحجر الفكري على قومهم .

٨ - وأخرج أبو نعيم من طريق محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه عن هبّار بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام وتجهزتُ معهما فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إليه (١) فلأوذينه في ربه فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد هو يكفر بالذي دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فقال رسول الله ﷺ : «اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك» .

ثم انصرف عنه فرجع إليه (٢) فقال : أي بني ماقلت له ؟ قال : كفرت بإلهه الذي يعبد . قال فماذا قال لك ؟ قال ، قال : اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك ، فقال : أي بني والله ما آمن عليك دعوة محمد .

قال : فسرنا حتى نزلنا الشراة وهي مأسدة فنزلنا إلى صومعة راهب ، فقال : يامعشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد وإنها مسرح الضيغم ؟ فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم حقي ، قلنا : أجل يا أبا لهب فقال : إن محمداً قد دعا على ابني دعوة والله ما آمنها عليه فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ثم افرشوا حوله ، فبينما نحن حوله

---

(١) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) يعني إلى أبيه .

وأبو لهب معنا أسفل ، وبات هو فوق المتاع فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد تقبض ثم وثب فإذا هو فوق المتاع ، فجاء الأسد فشم وجهه ثم هزمه هزمة ففضخ رأسه ، فقال : سيفي ياكلب ، لم يقدر على غير ذلك ، ووثبنا فانطلق الأسد وقد فضخ رأسه فقال له أبو لهب : قد عرفت والله ما كان لينفلت من دعوة محمد [١] .

وهكذا استجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ فبعث على عتبة بن أبي لهب الأسد الذي أصبح جندياً من جنود الدفاع عن الحق فأهلكه ، ولم تُجْدِ كل الاحتياطات الأمنية التي أحاط بها أبو لهب ابنه .

ومن الغريب في الأمر أن أولئك الكفار يوقنون بأن النبي ﷺ مستجاب الدعوة ومع ذلك يستمرون في مقاومته وإيذائه ، ولايحملهم ذلك على الإيمان به والاستجابة لدعوته ، وهذه صورة من صور اتباع الهوى المنحرف ، حيث يكون الحق واضحا مثل الشمس فيحيد أصحاب الهوى المنحرف عن اتباعه .

ولقد حمى الله تعالى نبيه ﷺ في مواطن أخرى من أذى الكفار كما أخرج الإمام مسلم بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم / ١٦٢ .
وأخرجه أيضاً الحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٥٣٩ - وحسن إسناد الحاكم الحافظ ابن حجر - فتح الباري ٤/ ٣٩ - .

جهل : هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم [1] ؟ قال : فقيل : نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته - أو لأعفرن وجهه في التراب - قال : فأتى رسول الله ﷺ وهويصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة .

فقال رسول الله ﷺ : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً .

قال : فأنزل الله عز وجل - لاندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه - ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ [2] (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق : ٦ - ١٩] [3] .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أبو بكر الحميدي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [4]

---

(١) يعني هل يلصق وجهه بالعفر وهو التراب ويعني بذلك السجود .
(٢) يعنى أبا جهل .
(٣ صحيح مسلم ، كتاب المنافقين / رقم ٢٧٩٧ ص ٢١٥٤ .
(٤) سورة المسد .

أقبلت العوراء أم جميل[1] ولها ولولة[2] وفي يدها فهر[3] وهي تقول :

مـذممـا أبـيـنا[4]   وديـنـه قـلـينا[5]

وأمـــره عـصـينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ، ثم قرأ قرآناً اعتصم به - كما قال - وقرأ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[6] .

فـأقـبلـت حـتى وقـفت على أبي بكـر ، ولـم تر رسـول الله ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر إني أُخبرتُ أن صاحبك هجاني ، فقال : لاورب هذا البيت ما هجاك ، قـال : فـولَّت وهي تقول : قد علمَتْ قريش أني بنت سيدها[7] .

ومن أمثلة ذلك ما سبق من خبر أبي جهل حينما هدد بفضخ رأس النبي ﷺ بالحجر فمنعه الله تعالى منه[8] .

---

(١) هي امرأة أبي لهب المذكورة في السورة .

(٢) أي عويل .

(٣) أي حجر .

(٤) تريد محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كان الكفار يسمونه على سبيل السخرية .

(٥) أي أبغضنا .

(٦) سورة الإسراء / ٤٥ .

(٧) مسند الحميدي ١/ ١٥٣ / ١٥٤ ، رقم ٣٢٣.
وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من طريق الحميدي ، وذكر مثله ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٣٦١ .

(٨) انظر ج١ ص ١٦٠ .

ولكن الله تعالى يمكّن الكفار أحياناً - كما في الخبر السابق [1]- من إيصال الأذى لرسوله ﷺ ، وذلك لرفع ذكره في العالمين ، وليكون قدوة لأتباعه المؤمنين في الرضا بقضاء الله تعالى ، والصبر الجميل على الأذى .

وقد يمكّن الله تعالى أهل الباطل من أهل الحق برهة من الزمن فيقومون بالتنكيل بأهل الحق ومحاولة إسكات أصواتهم ، ولكن سرعان ما ينهار بناؤهم أمام تماسك أهل الحق وصدق تمثيلهم لدينهم ، كما قال الله ﴿ **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ** ﴾[2] .

* * *

(١) انظر رقم ٧ .
(٢) آل عمران / ١١١ .

٦ - مواقف من صبر الصحابة على الأذى

لقد كانت مواجهة زعماء قريش لدعوة الإسلام عنيفة متواصلة . ولقد ساءهم كثيراً أن دخل في الإسلام عدد من أشرافهم وأبنائهم ، فحاولوا فتنتهم بالتأليف أولاً حيث أغروهم بالأموال والجاه إذا هم تركوا دينهم ، فلم ينجحوا معهم في ذلك فلجئوا إلى محاولة حرمانهم من الأموال والمتاع فلم يثنهم ذلك عن عزمهم على التمسك بدينهم الحنيف .

عند ذلك تحول الكفار إلى فتنة التخويف حيث قاموا بإيذاء المسلمين وتعذيبهم ، وقد يبدءون بفتنة الترهيب قبل المرور بفتنة الترغيب لإدراكهم بأن المسلمين ليسوا طلاب دنيا وأن أي محاولة في ترغيبهم ستبوء بالفشل ، أو انطلاقاً من شدة حنقهم على الإسلام ودعاته .

وقد مر بهذه الفتنة أكثر المسلمين سواء في ذلك الأغنياء والفقراء والأحرار والعبيد .

ومن أمثلة ذلك ماذكره ابن سعد من رواية محمد بن عمر الواقدي بإسناده إلى إبراهيم بن محمد بن أبي طلحة قال : قال طلحة بن عبيد الله : حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول : سلوا أهل الموسم أفيهم رجل من أهل الحرم ؟ قال طلحة : قلت : نعم أنا . فقال : هل ظهر أحمد بعد ؟ قلت ومن أحمد ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذي يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ومخرجه من

الحرم ، ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ فإياك أن تسبق إليه .

قال طلحة : فوقع في قلبي ما قال ، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة ، فقلت : هل كان من حدث ؟ قالوا نعم محمد بن عبد الله الأمين قد تنبأ ، وقد اتبعه ابن أبي قحافة ، قال : فخرجت حتى دخلت على أبي بكر فقلت : أتَبعت هذا الرجل ؟ قال : نعم فانطلق إليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق ، فأخبره طلحة بما قال الراهب ، فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم طلحة ، وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب فَسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك ، فلما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية فشدهما في حبل واحد ، ولم يمنعهما بنو تيم ، وكان نوفل بن خويلد يُدْعَى أسد قريش فلذلك سُمِّي أبو بكر وطلحة القرينين .

ورواه الحاكم والبيهقي من طريق الواقدي بهذا الإسناد .

وذكره ابن كثير والذهبي من هذا الطريق ، وسكت هؤلاء الأئمة عنه [١] .

وهذه الرواية من طريق الواقدي وقد حكم علماء الحديث عليه بالترك ولكن العلماء اعتمدوا رواياته في السيرة والمغازي ، ويكفي إقرار

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٢١٤ ، المستدرك ٣/ ٣٦٩ ، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٦٦ ، البداية والنهاية ٣/ ٢٨ ، تاريخ الإسلام / السيرة / ١٣٩ .

هؤلاء الأئمة : ابن سعد والحاكم والبيهقي وابن كثير والذهبي لهذه الرواية .

ومن ذلك ماجرى للزبير بن العوام رضي الله عنه من تعذيب عمه له كما أخرج الحاكم عن أبي الأسود عن عروة قال : أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثمان سنين وهاجر وهو ابن ثمان عشرة سنة وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار ويقول : ارجع إلى الكفر فيقول الزبير : لا أكفر أبداً .

وسكت عنه الحاكم والذهبي [١] .

وقال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله ثقات إلا أنه مرسل [٢] .

وكذلك ما جرى لعثمان بن عفان من تعذيب عمه له كما أخرج ابن سعد بإسناده عن محمد بن إبراهيم بن حارث التيمي عن أبيه قال : لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطاً وقال : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين ، فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه [٣] .

وهكذا جرى التعذيب والإذلال لهؤلاء الكبراء المعروفين في قبيلة

---

(١) المستدرك ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٢)مجمع الزوائد ٩/ ١٥١ .

(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ٥٥ .

قريش من أصحاب النسب الرفيع ، ولم يردوا على قومهم الذين آذوهم لأنهم كانوا في المرحلة الأولى التي أمرهم فيها رسول الله ﷺ بالصبر على الأذى وعدم رد الاعتداء بمثله .

ومن أمثلة الثبات على الدين رغم التعرض للمحن ما جرى لسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه مع أمه ، وذلك فيما أخرجه أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي قال : إن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت فيَّ هذه الآية ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [1] كنت رجلاً برًا بأمي فلما أسلمت قالت : ياسعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لَتَدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي فيقال يا قاتل أمه ، قلت : يا أُمَّه لاتفعلي فإني لا أدع ديني هذا لشيء ، فمكثت يوماً وليلة لاتأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ماتركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت فنزلت هذه الآية [2] .

---

(١) سورة لقمان آية ١٥ .

(٢) الدر المنثور ٥ / ١٦٥ .

وأخرجه الإمام مسلم بنحوه ضمن حديث طويل [١] .

وقد ظهر بهذا إيمان سعد القوي حيث ثبت على دينه ولم يخضع لهذا الابتلاء الذي جعله في خيار بين طاعة الله وطاعة أمه ، ففضل طاعة الله جل وعلا .

أما المستضعفون منهم كالموالي فإنهم تعرضوا لأذًى شديد متواصل ، واتفق زعماء المشركين على الاستمرار في إيذائهم حتى يظفروا بمن يرجع منهم عن دينه فيكون ذلك نصراً لهم على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : ثم إنهم عَدَوْا على مَنْ أسلم ، واتّبع رسول الله ﷺ من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، مَن استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يَصْلُبُ لهم ، ويعصمه الله منهم .

وكان بلال ، مولى أبي بكر رضي الله عنهما ، لبعض بني جمح ، مُولَّدا من مولديهم ، وهو بلال بن رباح ، وكان اسم أُمّه حمامة ، وكان صادق الإسلام، طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح يخرجه إذا حَميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة

---

(١) صحيح مسلم ، فضائل الصحابة ١٨٧٧ رقم ١٧٤٨ .

ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء : أحَد أحَد [١] .

وأخرج الإمام أحمد والحاكم خبر تعذيب بلال وغيره من المستضعفين ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي . وكذلك صححه الذهبي في تاريخ الإسلام [٢] .

وقد ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن أبا بكر مرَّ به وهو يعذب فاشتراه من أمية بن خلف الجمحي ثم أعتقه لوجه الله تعالى ، وذكر أنه أعتق ستة آخرين من المعذبين وهم : عامر بن فهيرة ، وأم عبيس ، وزنِّيرة ، والنهدية وابنتها وجارية بني مؤمِّل [٣] .

وأخرج الإمام البيهقي بإسناده عن يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه : أن أبا بكر أعتق ممن كان يُعذَّب في الله سبعة ، فذكر منهم « الزِّنِّيرة » قال : فذهب بصرها وكانت ممن يعذب في الله على الإسلام ، فتأبى إلا الإسلام ، فقال المشركون : ما أصاب بصرها إلااللات والعزى ، فقالت : كلا والله ماهو كذلك ، فرد الله عليها بصرها [٤] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٤ - ٣٢٥ .
(٢) مسند أحمد ١/ ٤٠٤ ، المستدرك ٣/ ٢٨٤ ، تاريخ الإسلام / السيرة/ ٢١٧ .
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٩ - ٣٢٦ .
(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٨٢ .

وفي هذا الخبر دلالة على قوة إيمان الصحابة ووضوح عقيدة التوحيد عندهم وأن ذلك كان حتى على مستوى العامة منهم .

وإن ما أكرم الله تعالى به تلك المرأة المؤمنة من رد بصرها إليها يعتبر إرغاماً للكافرين حيث كانوا يعتقدون أن أصنامهم تضر وتنفع من دون الله تعالى .

وهكذا كان أبوبكر ينفق ماله لإنقاذ المسلمين المستضعفين من أيدي الكافرين الطغاة ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة .

وقد أثنى الله تعالى على هذا العمل الصالح بآيات من سورة ﴿ **الليل** ﴾ وذلك كما أخرج الحاكم من طريق ابن إسحاق قال حدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قال أبو قحافة لأبي بكر : أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك إذ فعلت مافعلت أعتقت رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون دونك ، فقال أبو بكر : يا أبت إني إنما أريد ما أريد : لما نزلت هذه الآيات فيه ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ إلى قوله عز وجل ﴿ **وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾[1] .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[2] .

---

(١) سورة الليل آية ٢ - ٢١ .

(٢) المستدرك ٢/ ٥٢٥ .

وذكره السيوطي ونسبه إلى ابن جرير وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير وذكر نحوه وقال فيه : فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ الآيات [1] .

وفي هذه المحاورة بين أبي بكر وأبيه ندرك لوناً من ألوان الفرق بين نظرة أهل الجاهلية ونظرة المسلمين بالنسبة لوجوه إنفاق المال وبذل المعروف ، فوالد أبي بكر ينظر إلى مستقبل الحياة الدنيا فيشير على ولده بأن يضع المعروف فيمن يستطيعون نفعه في مستقبل حياته ، وهذا مبلغ علمه ، فهو لا يؤمن بالآخرة ، وبالتالي فإنه لايتصور معروفاً يُبذل في الدنيا ليَجني باذله نفعه في الآخرة ، ولهذا فإن بذل المعروف في ضعاف الناس الذين لايرجو نفعهم في الدنيا يُعتبر في نظره ونظر أهل الجاهلية من ضعف الرأي وضآلة التفكير ، بينما يجيبه أبو بكر بقوله : « يا أبت إنما أريد ما أريد » فإذا كان أهل الجاهلية يريدون قبض ثمن معروفهم في الدنيا فإنه لايريد ذلك ، وإنما يريده في الحياة الآخرة طلباً لرضوان الله تعالى والدرجات العُلَى في الجنة .

وحينما يُحشر الخلائق يوم القيامة وتوزن الأعمال ويكون الحساب يذكر العاملون للدنيا فقط أنهم قد خسروا كل شيء ، ويوقنون بأن الذين عملوا للآخرة كانوا أكمل عقلاً وأسد رأياً منهم .

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٥٨ .

وإنه ليشبه عمل هؤلاء الذين يعملون لدنيا هم مايقوم به بعض المسئولين من المسلمين الذين يقدمون المعروف لكبار الناس ممن يرجون نفعهم في الحياة الدنيا ولايريدون ببذل المعروف وجه الله تعالى والدار الآخرة . بينما يقبضون معروفهم عن ضعفاء الناس الذين لايرجون منهم نفعاً دنيوياً ، وإن كان هؤلاء يختلفون عن أهل الجاهلية بكونهم مسلمين ولهم أعمال صالحة أخرى .

إن الذي ينظر في بذل المعروف إلى الكسب الأخروي لايفرق في ذلك بين كبراء الناس وضعفائهم ، ولابين أصحاب المسئولية ومن هم خلوٌ منها لأنه لاينتظر منهم وهو يبذل لهم المعروف أن يبادلوه بمثله وإنما ينتظر الأجر والرفعة في الآخرة ، وذلك هو الفلاح الأكبر .

ومما ينبغي التنبيه إليه أن والد أبي بكر قد أسلم يوم فتح مكة رضي الله عنهما .

وممن تعرض للأذى عمار بن ياسر وأبوه وأمه رضي الله عنهم . قال ابن إسحاق رحمه الله : وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول - فيما بلغني - صبراً آل ياسر موعدكم الجنة ، فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام [١] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٧ .

وأخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي (١) .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات (٢) .

وقد بقيت آثار التعذيب على ظهر عمار بعد ذلك كما روى ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال : أخبرني من رأى عمار بن ياسر متجرداً في سراويل ، قال : ونظرت إلى ظهره فإذا فيه حَبَط فقلت : ماهذا ؟ قال : هذا ما كانت قريش تعذبني في رمضاء مكة (٣) .

وممن تعرضوا للأذى خباب بن الأرَتّ رضي الله عنه ، ومن ألوان هذا العذاب ما أخرجه أبو نعيم عن الشعبي قال : سأل عمر خباباً عما لقي من المشركين ، فقال خباب : يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري ، فقال عمر : ما رأيت كاليوم ، قال : أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري (٤) .

وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي ليلى الكندي قال : جاء خباب إلى عمر فقال : ادْنُ فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار ، فجعل خباب يريه آثاراً بظهره مما عذبه المشركون .

---

(١) المستدرك ٣/ ٣٨٨ .

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ٢٩٣ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٦٠ .

(٤) الحلية ١/ ١٤٣ - ١٤٤ .

قال البوصيري في الزوائد : اسناده صحيح [1] .

وإنما ذكر عمر عماراً لاشتراكه مع خباب في التعذيب ، والرواية الأولى تبين أن خباباً أظهر آثار التعذيب بعدما سأله أمير المؤمنين عمر عن ذلك رضي الله عنهم أجمعين .

وأخرج الإمام البخاري بسنده عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فَيُجَاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه ، والله لَيتمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضْرَمَوت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون [2] .

ومن هذه النماذج العالية نعرف كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يضحون بأنفسهم في سبيل هذا الدين ويتحملون أنواع الأذى في سبيل إظهار دعوتهم ، حتى ضربوا بذلك أروع الأمثلة لمن جاء بعدهم في الصبر والتضحية ، وتقديم مصلحة الدعوة الإسلامية على المصالح الذاتية .

---

(١) سنن ابن ماجه / المقدمة رقم ١٥٣ .

(٢) صحيح البخاري رقم ٦٩٤٣ (الفتح ١٢ / ٣١٥) .

وفي قوله ﷺ : « صبراً آل ياسر موعدكم الجنة » تحديد للهدف العالي الذي يجب أن يسعى له كل مسلم ، فإن النبي ﷺ لم يَعدْهم بقصور الدنيا وبساتينها ونعيمها مع ما كان يعلمه بوحي من الله تعالى من غلبة هذا الدين وانتصار المسلمين على أمم الأرض في المستقبل ، لأن هذا ليس هو الهدف السامي الذي شرع الله الإسلام من أجله إنما الهدف السامي هو الذي أثنى الله به جل وعلا على صحابة رسول الله ﷺ بقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾[1] وهو ما وُعد به آل ياسر في هذا الحديث لأن المراد بالفضل في الآية الجنة .

إنه لو كان الوعد بمتاع الحياة الدنيا الزائل لما هانت على هؤلاء أنفسهم لأن هذا الهدف يستدعي استبقاءهم لأنفسهم حتى يظفروا به ، ولما وُجد الشهداء في سبيل الله تعالى إلا قليلاً ولما حصل النصر والتمكين في الأرض للمسلمين .

إن الإسلام يشد المسلمين إلى الآخرة لتهون عليهم الحياة الدنيا ، فإذا عرفوا هذا الهدف وطبقوه انتصروا على أعدائهم لأن وصولهم إلى هذا الهدف يستدعي تسابقهم إلى الموت في سبيل الله تعالى ، أما أعداؤهم فإن أهدافهم دنيوية قريبة وإن الوصول إليها يستدعي تنافسهم على البقاء ، والمنطق الطبيعي في ذلك أن يحاول كل واحد منهم أن يدرأ الخطر عن نفسه ويتقي بغيره ، بينما المنطق الطبيعي بالنسبة للمسلمين

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩ .

الذين يعون الهدف السامي أن يفدي كل واحد منهم إخوانه بنفسه ليسبقهم على الوصول إلى الهدف .

ومن هنا كان المسلمون الحقيقيون المدركون لأهداف دينهم المطبقون لمناهجه لايمكن أن يغلبوا بشكل نهائي وإنما قد يصابون بانتكاسات مؤقتة بسبب أخطاء يرتكبونها ثم يعودون لمحاولة بلوغ الأهداف السامية ، كما هو الحال في صحابة رسول الله ﷺ .

هذا وقد تنوعت وسائل الأذى من الكفار للمسلمين وكانوا يعاملون كل مسلم حسب مكانته الاجتماعية وعمله ، وفي ذلك يقول ابن إسحاق رحمه الله : وكان أبو جهل الفاسق يغري بهم - يعني بالمسلمين - في رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه ، وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لَنُسفِّهن حلمك ، ولنُفَيِّلَن رأيك [1] ، ولنَضَعَنَّ شرفك . وإن كان تاجراً قال : والله لنُكَسِّدَنَّ تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به [2] .

وهكذا يقف الكفار في مواجهة المسلمين فيقومون بتشويه سمعتهم وإسقاط مكانتهم في المجتمع بكل الطرق التي يرونها مؤثرة ، وهم لعدم

---

(١) يعني لنخطئن رأيك .

(٢) السيرة النبوية لإبن هشام ١/ ٣٢٨ .

إيمانهم بالله واليوم الآخر لا يتورعون عن مأثم ولايخشون عقوبة على أعمالهم السيئة ، فلذلك يبيحون لأنفسهم الكذب والتزوير ، ويضللون الرأي العام بأقوال وأخبار مختلقة ، يقصدون منها إضعاف معنوية المسلمين .

ومن كان ماله من المسلمين يقوم على التجارة ونحوها مما يقوم على التعامل مع الآخرين فإنهم يحاصرونه ويشوهون سمعته التجارية ويضعون العراقيل في وجهه حتى يفلس في تجارته .

هكذا شأن الكفار والمنافقين في حربهم مع المؤمنين في كل زمن ، وقد لايملك المسلمون من وسائل المقاومة إلا الصبر والزهد في الدنيا وانتظار الفرج ، فإذا تحققت فيهم هذه الصفات كما توفرت لدى الصحابة رضي الله عنهم فإنهم جديرون بنصر الله تعالى والتمكين في الأرض .

هذا ومما استعمله الكفار ضد المسلمين من الأذى جحود حقوقهم المالية حتي يكفروا بالإسلام ، ومن ذلك ما جاء في رواية أخرجها الإمام البخاري رحمه الله من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده ، فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ ، فقلت : لا حتى تموت ثم تبعث ، قال : وإني لميت ثم مبعوث ؟ قلت : نعم ، قال : إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك ،

فنزلت هذه الآية : ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾(١) .

وقول خباب « لا حتى تموت ثم تبعث » ليس على ظاهره بل المراد منه تبكيت ذلك الكافر ، يقول الحافظ ابن حجر في ذلك : مفهومه أنه يكفر حينئذ - يعني بعد البعث - لكنه لم يُرد ذلك لأن الكفر حينئذ لايتصور ، فكأنه قال : لا أكفر أبداً ، والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لايؤمن به (٢) ، ويحتمل أنه أراد تهديده بذلك .

هذا ومما يلاحظ من الأخبار السابقة أن رسول الله ﷺ كان يمنع المسلمين آنذاك من الرد على عدوان الأعداء ويأمرهم بالصبر على الأذى لأن وضعهم لم يكن يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم بالقوة ، ولاشك أن وراء أمرهم بالصبر حكَماً عظيمة .

ولقد حاولت أن ألتمس شيئاً من هذه الحكم ، ولكني وجدت أن ماسطره الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى أبلغ وأشمل مما كتبته بكثير فرأيت اقتباس ما كتبه في هذا الموضوع لأهميته ، يقول رحمه الله تعالى :

---

(١) صحيح البخاري التفسير ، سورة مريم / ٣ رقم ٤٧٣٢ وتكملة الآيات : ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ مريم / ٧٧ - ٨٠ .

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٣٠ .

أما حكمة هذا فلسنا في حلٍّ من الجزم بها ، لأننا حينئذ نتألّى على الله ما لم يبين لنا من حكمة ، ونفرض على أوامره أسباباً وعللا ، قد لاتكون هي الأسباب والعلل الحقيقية ، أو قد تكون ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها ، ويعلم - سبحانه - أن فيها الخير والمصلحة . . وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف ، أو أي حكم في شريعة الله لم يبين الله سببه محددا جازما حاسما فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف ، أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف ، مما يدركه عقله ويحسن فيه ، فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال . ولايجزم - مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله - بأن ما رآه هُوَ حكمةً ، هو الحكمةُ التي أرادها الله . . نصا . . وليس وراءها شيء ، وليس من دونها شيء ! فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله . ومقتضى مابين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف في الطبيعة والحقيقة .

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة . . نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب . . على أنه مجرد احتمال . . وندع ماوراءه لله . لانفرض على أمره أسباباً وعللا ، لايعلمها إلا هو . . ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح ! .

إنها أسباب . . اجتهادية . . تخطيء وتصيب . وتنقص وتزيد . ولانبغي بها إلا مجرد تدبر أحكام الله . وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان :

« أ » ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، في بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات ، تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به . ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولاتعود ذاته ولا من يلوذون به ، محور الحياة في نظره ، ودافع الحركة في حياته . . وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ، فلا يندفع لأول مؤثر - كما هي طبيعته - ولا يهتاج لأول مهيج . ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته . . وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ، ولايتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي ، لإنشاء « المجتمع المسلم » الخاضع لقيادة موجهة ، المترقي المتحضر ، غير الهمجي أو القبلي .

«ب» وربما كان ذلك أيضاً ، لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ

في مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والشرف ، والتي قد يدفعهاالقتال معها - في مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة ، كثارات العرب المعروفة ، التي أثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس - أعواماً طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها - وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام ، فلا تهدأ بعد ذلك أبدا . ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية ، وهو في مبدئه ، فلا تذكر أبداً ! .

«جـ» وربما كان ذلك أيضاً ، اجتنابا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم . إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه هم ويفتنونه و **يؤدبونه** ! ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت . . ثم يقال : هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش في الموسم ، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : إن محمدا يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولى . . في كل بيت وكل محلة ؟ .

«د» وربما كان ذلك أيضاً ، لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم

بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص ، بل من قادته . . ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟! .

«هـ» وربما كان ذلك ، أيضاً ، لأن النخوة العربية ، في بيئة قبلية ، من عادتها أن تثور للمظلوم ، الذي يحتمل الأذى ، ولايتراجع ! وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم . . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في هذه البيئة - فابن الدَّغنَّة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى في ذلك عاراً على العرب ! وعرض عليه جواره وحمايته . . وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب ، بعد ما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة . . بينما في بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التي مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي ! .

« و » وربما كان ذلك أيضاً ، لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم في مكة . حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة . أو بلغت أخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد ، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . . ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ، حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى

الشرك ، وتنمحي الجماعة المسلمة . ولم يقم في الأرض للإسلام نظام ، ولا وجد له كيان واقعي . . وهو دين جاء ليكون منهج حياة ، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة .

« ز » في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة ، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها ، والأمر بالقتال ودفع الأذى . لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائماً - وقتها - ومحققا . . هذا الأمر الأساسي هو **وجود الدعوة** . . وجودها في شخص الداعية - ﷺ - وشخصه في حماية سيوف بني هاشم ، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع ! والنظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشم ، إذا هي امتدت يدها إلى محمد - ﷺ - فكان شخص الداعية من ثم محمياً حماية كافية . . وكان الداعية يبلغ دعوته - إذن - في حماية سيوف بني هاشم ومقتضيات النظام القبلي ، ولا يكتمها ، ولايخفيها ، ولايجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها ، في ندوات قريش في الكعبة ، ومن فوق جبل الصفا ، وفي اجتماعات عامة . . ولايجرؤ أحد على سد فمه ! ولايجرؤ أحد على خطفه وسجنه أو قتله ! ولايجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلاما بعينه يقوله ، يعلن فيه بعض حقيقة دينه ، ويسكت عن بعضها . وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف . وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم في جهنم لم يسكت . وحين طلبوا إليه أن يُدْهن فيدهنوا . أي

أن يجاملهم فيجاملوه ، بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته ، لم يدهن . . وعلى الجملة كان للدعوة **وجودها** الكامل ، في شخص رسول الله - ﷺ - محروساً بسيوف بني هاشم - وفي إبلاغه لدعوة ربه كاملة في كل مكان وفي كل صورة . . ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة والتغاضي عن كل هذه الاعتبارات البيئية التي هي في مجموعها ، مساندة للدعوة ومساعدة في مثل هذه البيئة [1] .

وربما كان من الحِكَم في ذلك أن يظهر للأعداء عظمة هذا الدين ، وأنه هو الدين الحق لما يتمثل به أتباعه من الصبر الطويل على الأذى ، والمقدرة الفائقة على ضبط النفس ، حيث يتساءل الأعداء عن السر الكامن وراء الصبر والثبات ، فلايجدون إجابة على تساؤلاتهم إلا بالتفكير في هذا الدين العظيم الذي كان وراء هذا الصمود العجيب والصبر الجميل .

هذا وقد اضطر بعض المعذبين من الصحابة للاستجابة لفتنة الكفار ظاهراً وموافقتهم على قول ما يطلبونه منهم للتخلص من تعذيبهم ، كما قال ابن إسحاق رحمه الله : وحدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أكان المشركون

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٤٥٢ ، سورة النساء/ ٧٧ .

يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة [1] .

وهكذا كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يتعرضون في ذلك العهد لأنواع من التعذيب هي فوق احتمال البشر ، مما حمل بعضهم مع قوة إيمانهم على موافقة المشركين ظاهراً فيما ألزموهم بقوله مما يتنافى مع الإسلام .

وقد أقر النبي ﷺ أولئك المعذبين على اتقاء عذاب المشركين بإظهار ما يريدون منهم ، ومن أدلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من حديث أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم[2] في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنا بالإيمان ، قال النبي ﷺ فإن عادوا فعد .

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ**

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٨ .

(٢) في تفسير الطبري « باراهم » وأثبت ما في تفسير ابن كثير المنقول من الطبري لأنه هو الموافق لسياق الخبر – تفسير ابن كثير ٢/ ٦٣٧ .

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) (٢) .

وهذا يعتبر رخصة للمسلمين الذين يتعرضون للبلاء الشديد على يد الكفار ، فمن ثبت وراغم الكفار كما فعل بلال فهو أفضل ، ومن أخذ بالرخصة كما فعل عمار فإنه لا إثم عليه ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان ، ولله الحمد والفضل .

وفي قوله ﷺ « كيف تجد قلبك ؟ » دلالة على أهمية صيانة الفكر من أن يتطرق إليه شيء من الشبهات التي يثيرها الكفار .

إن هؤلاء المعذبين قد استطاع الكفار أن يثخنوا في أجسادهم وأن يُلجئوا بعضهم إلى قول ما لا يعتقدون ، ولكنهم لم يستطيعوا أبدا أن يهيمنوا على عقولهم وأفكارهم .

إن الفكر حصن حصين وهبه الله تعالى للإنسان ، فلا يستطيع البشر مهما أوتوا من قوة أن يطلعوا على أسراره وخفاياه ، ولا أن يهيمنوا عليه فيغيروا من معتقده .

إن الطغاة الجبابرة يستطيعون أن يفعلوا في أجساد المؤمنين المعذبين

(١) سورة النحل آية ١٠٦ .
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ١٨٢ .

ماشاءوا وأن ينتزعوا من بعضهم ما يريدون من اعترافات ، ولكنهم لايستطيعون أن يتحكموا في أفكارهم ، وهذا من أبرز علامات الفشل والعجز ، لأن تغيير الأفكار هو المقصود الأول من وراء ذلك التعذيب .

* * *

٧ - أثر دعوة الرسول ﷺ في تحطيم الطغيان

الطغيان في اللغة التعدي وتجاوز الحد [1] .

والمقصود به هنا سلب شيء من خصائص الألوهية من الخالق جل وعلا ومنحه للمخلوق ، فهذا من التعدي على الله سبحانه ومن التجاوز بالمخلوق فوق حده .

وقد ظهر الطغيان في عهد الجاهلية على ضربين :

الأول : منح الأصنام حق العبادة من دون الله تعالى .

والثاني : منح زعماء المشركين حق التشريع من دون الله تعالى .

فأما الأول فإنه قد انتشر في جزيرة العرب انتشاراً واسعاً ، وكان العرب في ماضي حياتهم على دين إسماعيل عليه السلام ، وهو التوحيد إلى أن دخلت عبادة الأصنام في حياتهم .

وكان أول من أدخل عبادة الأصنام على العرب عمرو بن لُحَيّ الخزاعي ، كما جاء في حديث أخرجه الحاكم ، وفيه قال رسول الله ﷺ بعد أن ذكر النار : « ورأيت فيها عمرو بن لحي يجر قصبه في النار ، وأشبه من رأيت به معبد بن أكثم الخزاعي ، فقال معبد : يارسول الله أتخشى عليَّ من شبهه فإنه والدي ؟ قال : لا ، أنت مؤمن وهو كافر ، وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام » .

---

(١) مفردات الراغب / ٣٠٤ .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي [1] .

وانتشرت عبادة الأصنام في بلاد العرب حتى دخلت إلى بيوتهم ، وفي بيان ذلك يقول ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسَّح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله [2] .

وقد أخذت عبادة الأصنام أشكالاً متعددة منها السجود لها والطواف حولها والنحر عندها ، والتمسح بها .

ومن مظاهر إشراكهم الأصنام مع الله تعالى قول بعضهم في تلبية الحج « لبيك لاشريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » [3] .

هذا وقد انتشرت عبادة الأصنام في أكثر الأمم الجاهلية كما سيتبين لنا في عرض مواقف الفتوحات الإسلامية .

أما الضرب الثاني من الطغيان فهو منح زعماء المشركين حق التشريع من دون الله تعالى فهذا واضح في جميع الأمم ومنها قبائل العرب حيث كان الزعماء هم الذين يشرعون للناس ما ينظمون به حياتهم من

---

(١) المستدرك ٤/ ٦٠٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٩١ .

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٨٦ .

غير رجوع إلى وحي سماوي ، وكان بروز دور الزعماء في حياة الأمم ذات الحكومات أكبر مما هو عليه عند العرب الذين كانت تغلب عليهم الحياة القبلية .

وحينما تكون القلوب ممتلئة بتعظيم الأصنام والخوف منها وبتعظيم البشر والرهبة منهم فإن تصورات الإنسان تكون منحرفة عن الخط المستقيم ، لأن فكره سيكون مشغولاً بهذا الإطار ، من تقديم مظاهر التعظيم والولاء والخوف والرجاء رغبة فيما عندهم من الخير واتقاء لما عندهم من الشر الذي يكون من نسج الخيال وهيمنة الأوهام بالنسبة للأصنام ، ومن المغالاة في تقدير الأسباب التي يمكِّن الله تعالى منها طغاة البشر واعتبارهم مستقلين بها عن إرادة الله تعالى وقدرته .

وبالتالي يكون السلوك منحرفاً نحو عبادتهم من دون الله تعالى وذلك ظاهر في الأصنام ، ومغلف بالنسبة للطغاة لعدم تقديم مظاهر العبادة الظاهرة لهم ولكن بتقديم رضاهم على رضا الله تعالى ، وما يحبونه على ما يحبه ، واجتناب سخطهم وغضبهم وإن غضب الله جل وعلا عليهم .

وإن مهمة الداعية الحقيقية هي الجد في محاولة تفريغ قلوب هؤلاء المستعبدين وتطهيرها من رجس عبادة الأوثان من الأصنام ومن طغاة البشر ، وذلك ببيان حقارة الأصنام وعدم تمتعها بخصائص الإنسان العاقل فضلاً عن خصائص الألوهية ، وببيان جرائم الطغاة ومظاهر

الضعف والتناقض في أحكامهم وقراراتهم لتحطيم كبريائهم وتطهير العقول من اعتقاد عظمتهم وقداستهم .

ولقد قام رسول الله ﷺ في دعوته بهذه المهمة خير قيام ، حيث حطم الطغيان البشري القائم في عهده ، وأحل محله العبودية الكاملة لله عز وجل .

وقد أخذ جهاده لتحطيم الطغيان مسلكين :

المسلك الأول : ما قام به من تحقير الأصنام وتسفيه عبادتها وإظهارها بمظهر العاجز الذي لايبصر ولايسمع ، ولايضر ولاينفع ، وقد نزلت في هذا المعنى آيات كثيرة منها قول الله تعالي : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [1] .

(١) سورة الأعراف آية ١٩١ - ١٩٨ .

وقـــولـــه تعــالى : ﴿ واتَّخـذُوا من دُونه آلهـةً لا يَخْلُقُونَ شَـيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِـهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ (١) .

وقـوله تـعـالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٣) .

وقوله تـعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٤) .

وقوله تـعـالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الفرقان آية ٣ .
(٢) سورة يونس اية ١٨ .
(٣) سورة فاطر آية ١٣ - ١٤ .
(٤) سورة الحج آية ٧٣ .
(٥) سورة فاطر آية ٤٠ .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾[1] .

ففي هذه الآيات بيان عجز الأصنام وعدم أهليتها لأن تكون آلهة تعبد من دون الله تعالى ، حيث فقدت الحواس والأعضاء اللازمة لكل حي كي يتحرك ويعمل ، فضلاً عما هو فوق ذلك مما هو من خصائص الإله القادر كالإيجاد من العدم والملك المطلق لكل ما في السموات والأرض .

وليس المقصود بنقد عبادة الأصنام وتحطيم طغيان الكفار بها أن يقوم المسلمون بسب تلك الأصنام ، فإن السب لاينتج تحطيماً وقر في النفوس من تعظيمها وإنما يدفع عابديها إلى شيء من رد الفعل فيسبوا الله جل وعلا عن ذلك ، ولذلك نهى الله سبحانه المسلمين عن هذا السلوك بقوله : ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

فالسب والشتم نُزُول في مجال الجدل ولايقوم به إلا من فقد الحجة والبيان في الدفاع عن قضيته ، وقد كان رسول الله ﷺ قد أعطاه الله

---

(١) سورة سبأ آية ٢٢ .

(٢) سورة الأنعام / ١٠٨ .

تعالى أعلى البيان البشري وأبلغ الحجة ، مع ماهو مؤيد به من الوحي الإلهي العظيم .

أما الآيات السابقة التي اشتملت على نقد عبادة الأصنام فليست من باب السب والشتم ، وإنما هي من النقد المشتمل على بيان الحقائق ، ومن هذه الحقائق أن الأصنام عاجزة عن خلق الأشياء من العدم ، وأنها لاتستطيع نصر عبادها ولانصر أنفسها ، وأنها لاتملك لنفسها ضراً ولا نفعًا ، فضلاً عن أن تمنح ذلك عابديها ، وأنها لاتستطيع إماتة الناس ولا إحياءهم ، وأنها لاتملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .

فهذه الحقائق الناصعة لايستطيع الكفار أن يجيبوا عنها إلا بالإقرار والاعتراف بصدق ما جاء في القرآن من وصف أصنامهم ، بينما لايستطيعون أن يصفوا الله جل وعلا بتلك النقائص لأنهم يقرّون بتوحيد الربوبية ، وإنما جحدوا توحيد الألوهية .

والمسلك الثاني : القيام بتحطيم طغاة الكفار الذين كانوا يتزعمون قومهم ويشرعون لهم القوانين التي يسيرون عليها في هذه الحياة ، حيث إن الطغيان في ذلك الزمن يتمثل في شرك العبادة ، وذلك بعبادة الأصنام من دون الله تعالى ، وفي شرك الطاعة ، وذلك بطاعة السادة والزعماء الذين يشرعون للناس من دون الله تعالى .

ولقد نزل في توجيه النبي ﷺ إلى تحطيم الطغيان البشري آيات كثيرة ، منها :-

قوله تعالى ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١] .

وقوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴾ [٢] .

وقوله تعالي ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [٣] .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾ [٤] .

وقوله تعالى ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) ﴾ [٥] .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢١ / ١٢٢ .
(٢) سورة يونس آية ٤٢ – ٤٣ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٤٥ .
(٤) سورة الأنبياء آية ٩٨ – ١٠٠ .
(٥) سورة الزمر آية ٦٤ .

وقوله تعالى﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] .

ولقد كان النبي ﷺ يجهر بتلاوة هذه الآيات وأمثالها ولايداري المشركين بالإسرار بها ، وكان من الأهداف الكبيرة والحكَم البالغة من نزول هذه الآيات الشديدة على المشركين أن يتحطم الطغيان الذي عشش في أفكار زعماء الكفار وسادتهم ، وأن يتلاشى شيئاً فشيئاً ما وقر في نفوس الأتباع من تعظيمهم والرهبة منهم .

ولقد سبقت أخبار تبين جرأة النبي ﷺ على زعماء الكفار وستأتي أخبار أخرى في هذا المجال .

ولقد اجتمع على سيادة مكة آنذاك عدد من أشراف قريش منهم أبو جهل عمرو بن هشام وأمية وأبي ابنا خلف والوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل ، وكانوا جميعاً يعادون الإسلام ويحكمون أهل مكة بالقوانين التي تعارفوا عليها ، وكان من الصعب على أفراد الناس أن يخالفوهم في شيء من ذلك ، بل إنّ قوانينهم تلك اكتسبت القداسة الدينية لكونها مما ورثوه عن آبائهم

---

(١) سورة الجاثية آية ٧ – ١٠ .

وأجدادهم ، فلما قام النبي ﷺ بمخالفتهم في ذلك والإنكار عليهم وتسفيه آرائهم وعيب ما ورثوه عن أسلافهم أنكروا ذلك منه وناصبوه العداء ، وساءهم أن بعض أشرافهم قاموا بحمايته وأبرزهم عمه أبو طالب .

وكان لزعماء مكة المذكورين شأن كبير في نفوس أكثر أهل مكة ، بل في نفوس قبائل العرب ، وقد بلغ تعظيم أتباعهم لهم في مكة حد العبادة حيث خضعوا لهم في القوانين التي كانوا يؤمنون بها ويحمونها وينفذونها ، فكان من أعظم مَهامِّ النبي ﷺ في دعوته أن يزيل من النفوس ما وقر فيها من تعظيم هؤلاء الطغاة ، وأن يمحو من القلوب أي حب أو تقدير لهم ، لأن تمكن محبتهم وتعظيمهم في القلوب يزاحم وجود الإيمان بالله تعالى وتعظيمه ، وبالتالي يتشكل سلوك الناس في الحياة وتصوراتهم على ما يرسخ في القلب من المعتقدات .

لقد كان من أول ما يتخلى عنه المؤمنون بالإسلام آنذاك أن ينفضوا من قلوبهم أي غبار علق بها من الولاء للأصنام أو للطغاة الذين يحاولون أن يتحكموا في مصائر الناس وأن يحددوا لهم المعتقدات التي يؤمنون بها والسلوك الذي يسيرون عليه في الحياة .

ولقد كان الرجل يمسي كافراً وقلبه عامر بحب أولئك الأوثان من الحجارة وطغاة البشر ، ثم يصبح مؤمناً وقد محا من قلبه أي وجود لتلك

الأوثان .

ولقد كان من مظاهر ولاء الكفار لطغاتهم أنهم كانوا يُكثرون من الثناء عليهم وذكر محاسنهم ويغضُّون الطرف عن مساوئهم ، بل كانوا يسوِّغون مساوئهم ويحوِّلونها إلى محاسن ومحامد .

لقد كان أولئك الطغاة يقودون قومهم إلى الضلال في الدنيا والنار في الآخرة رغم وضوح الحق لهم واعتراف بعضهم بذلك ، ومع ذلك يتبعهم عامة الناس إلى هذه الحياة المظلمة والمصير المهلك ، وقد ألغوا عقولهم وحصروا تفكيرهم في محاولة كسب رضا أولئك الطغاة والحصول على شيء مما يجري على أيديهم من متاع الدنيا الزائل ، أو كسب الجاه الوهمي الذي يحاول الطغاة رفعهم إليه .

ولقد كان يحصل من أولئك الطغاة غالباً تمجيد لأولئك الأتباع الذين يسيرون في ركابهم ، وثناء عليهم بذكر فضائلهم ، وما ذاك إلا لأن الطغاة لايقوم وجودهم إلا على أتباعهم من عموم الناس ، فإذا فقدوا هذه القاعدة سقطوا ، فوجود كل من الطائفتين مرتبط بوجود الطائفة الأخرى .

وكما أن العامة محتاجون إلى الطغاة في بعض أمور معاشهم وتَبوُّء المكانة الاجتماعية التي يطمحون إليها فإن الطغاة محتاجون إليهم لأنهم الركيزة التي يقوم عليها مجدهم ، بل إن حاجة هؤلاء إلى العامة أعظم

وأهم ، لأن وجود مجدهم يقوم على أولئك العامة بينما يستطيع العامة لو عقلوا وتفكروا أن يتخلوا عنهم وأن يبحثوا عن ما يحقق مصالحهم في الدنيا والآخرة .

وهكذا فعل المؤمنون في مكة حيث حرروا أنفسهم من أوهام الجاهلية ومن ربقة تبعية أولئك الطغاة ، فأصبحوا ينظرون إليهم بازدراء واحتقار ، ويعتبرونهم من معالم الوثنية التي جاء الإسلام للقضاء عليها وتحرير عقول الناس منها .

إن ما قام به رسول الله ﷺ من تحرير عقول الناس من تبعية طغاة البشر قد أتاح لهم فرصة عظيمة من التفكير والإبداع في هذه الحياة ، فليس أمام المؤمنين من يطلبون رضاه ويجتنبون سخطه إلا الله تعالى ، ثم هم بعد ذلك يتحركون غير مقيدين بالخضوع لبشر مثلهم ، وإن كان الإسلام قد أوجب عليهم طاعة ولاتهم فإن ذلك من طاعة الله جل وعلا ، ما دام الجميع خاضعين لذلك المبدأ العظيم وهو طلب رضوان الله تعالى واجتناب سخطه .

* * *

مواقف في هجرتي الحبشة الأولى والثانية

لقد اشتد أذى المشركين على المسلمين في مكة المكرمة كما تقدم ذكر أمثلة من ذلك ، ولقد واجه المسلمون ذلك الأذى بالصبر الجميل ، ولكن المشركين أصبحوا يضاعفون من ذلك الأذى كلما تقدم بهم الزمن ورأوا أن كفة المسلمين تعلو شيئاً فشيئاً بدخول بعض أشراف أهل مكة في الإسلام .

فلما رأى النبي ﷺ ذلك وجه أصحابه إلى الهجرة ليسلموا من الأذى وليعبدوا الله تعالى في حرية ، وليقوموا بنشر الإسلام في بلاد أخرى ، وقد اختار لهم الحبشة لما اشتهر عن حاكمها من العدل والرحمة .

وقد أخرج أهل السير خبر الهجرتين ، ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال : حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : لما ضاقت مكة وأوذي أصحاب رسول ﷺ وهو لايستطيع دفع ذلك عنهم وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه ، لايصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لايُظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » (١) .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٦٧ .

وذكر ابن هشام عن ابن إسحاق هذا الخبر ولم يذكر إسناده وذكر فيه أسماء العشرة الذين خرجوا في الهجرة الأولى ، وقد اصطحب بعضهم نساءهم [1] .

وأخرج ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمر الواقدي بإسناده عن الحارث بن الفضيل ورجل من بني ظفر قالا : فخرجوا متسللين سراً وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة منهم الراكب والماشي ، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار ، حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار ، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حيث نُبِّئَ رسول الله ﷺ ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا [2] .

وفي هذا الخبر زيادة على ماذكر ابن إسحاق بيان تاريخ هذه الهجرة ، ومطاردة قريش لهم وعدم ظفرهم بهم .

وذكر الحافظ ابن حجر أن مخرجهم كان في شهر رجب من السنة الخامسة ، ونسبه إلى أهل السير [3] .

ثم ذكر ابن إسحاق رحمه الله خبر الهجرة الثانية مطولاً من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٠ .
(٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٤ .
(٣) فتح الباري ٧/ ١٨٨ .

قال إبن إسحاق : حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت : « لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشيَّ ، أمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لانُؤْذى ولانسمع شيئاً نكرهه .

فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلْدَين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدم [1] ، فجعلوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله ابن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه ، ثم سَلاَه أن يُسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي ، ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطْريقٌ إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ، وقالا لكل منهم : إنه ضَوَى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردوهم

---

(١) يعني الجلود .

إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولايكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي .

قالت : فقالت بطارقته حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسْلمْهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشي ، ثم قال : لاها الله ، إذاً لا أسلمهم إليهما ، ولايُكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني » .

هذا خبر مهم فيه كشف مخططات الأعداء التي يدبرونها للقضاء على المسلمين ومواقف عالية في عدالة الحكام ، ومواقف إسلامية عالية من الصحابة رضي الله عنهم في التمثيل الصادق للإسلام ، ثم نتائج باهرة في صمود أهل الحق واعتزازهم بدينهم ، ونتائج فاضحة لأهل الباطل في كيدهم لأهل الحق .

ونبدأ بالإشارة إلى المخطط الأثيم الذي رسمه زعماء الكفر في مكة آنذاك لإرغام المسلمين على العودة والبقاء تحت سياط الذل والتبعية الممقوتة .

وإنه لعجيب أن يلاحق الكفار المسلمين خارج بلادهم ، وكأنهم رأوا أن حرية العبادة التي سعدوا بها في أرض الحبشة لايجوز أن يهنئوا بها وهم قد خرجوا عن الإطار العام الذي رسمه الطغاة في مكة لأبناء قبائلهم ومن حالفهم أو صار مملوكاً لهم ، وهذا مثال لنوع من التفكير المحدود ، وضيق الأفق الذي يعيش فيه الطغاة في كل زمن ، حيث يقفز إلى أذهانهم تصورات طائشة مبنية على الشعور بأن خروج طائفة من متبوعيهم عن الإطار المرسوم يعتبر إهانة لهم ، وعدم اعتراف بسلطتهم ، وبالتالي يتطور هذا الشعور إلى التفكير بإمكان قيام هؤلاء بعمل مضاد ، وإن كانوا لا دولة لهم ولاسلطان ، فيحملهم ذلك على المزيد من الملاحقة والمتابعة .

ولذلك رأينا زعماء الكفر حاولوا إعادة المهاجرين إلى مكة المكرمة ليعيشوا تحت سلطانهم ، فقام الطغاة بتشكيل الوفد المذكور الذي يضم عمرو بن العاص رضي الله عنه ، الذي يعتبر أعظم دهاة العرب كما شهد له عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما وجهه لحرب داهية الروم «أرطبون» فقال : رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمَّ تنفرج .

وأعدوا مجموعة من الهدايا لملك الحبشة ووزرائه ، واختاروا الجلود المدبوغة ، لأنها أنفس شيء يأتي إلى الحبشة من بلاد العرب ، ولقد أحسنوا إعداد الخطة ، حيث أجادوا اختيار الوفد ، ووجهوا عضوي الوفد إلى الاتصال أولاً بالوزراء وتقديم الهدايا لهم ، وشرح القضية أمامهم ليكسبوهم إلى صفهم فيما إذا بحث الوفد القضية مع النجاشي .

كما أن من بنود الخطة أن يحاول الوفد التأثير على النجاشي ليُصدر حكمه دون أن يسمع كلام المسلمين ، وذلك لعلمهم بأن المسلمين يملكون من الحجة والقوة المعنوية ما لايملكه غيرهم وإن كان خصمهم آنذاك عمرو بن العاص ، لكنه بعد أن أسلم زاده الإسلام عظمة وتفوقاً ، وأصبح رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده يُعدونه لعظائم الأمور .

لقد اتفق وفد قريش ووزراء النجاشي على الخطة الأثيمة التي

تقضي بتسليم المسلمين بدون استجواب ، وبدون أن ينالوا حريتهم في التعبير عن أنفسهم ومايريدون ، وهي خطة جاهلية درج عليها الطغاة من قديم الزمن ، ولم ينكرها وزراء النجاشي لأن ملوكهم السابقين كانوا على درجة من الطغيان ، فقد كان مألوفاً عندهم أن يؤخذ فرد أو أفراد فيحكم عليهم غيابياً ، وينفذ الحكم من غير حضورهم ولاتمكُّنهم من الدفاع عن أنفسهم .

وهكذا حينما يتمكن الطغيان من النفوس يرى أصحاب السلطة أن الأمر بيدهم ، فإن شاؤوا أعطوا الحريات ، وإن شاؤوا منعوها ، وحينما يخشون من الاعتراض عليهم فإنهم قد يعرضون قضايا المتهمين في المحاكم ، ويقومون بأدوار تمثيلية متقنة ، توهم العالم أنهم يعطون حرية الكلمة والدفاع عن النفس ، ثم هم ينفذون ما يمليه عليهم طغيانهم ، إذ أن الطغاة من البعيد جداً أن يتنازلوا عن مظاهر الطغيان إلا بقوة قاهرة تنقلهم من الجو المتعفن الذي يعيشون فيه إلى جو آخر يضطرون فيه إلى التنازل عن بعض ما في نفوسهم من الجبروت والترفع ، أو يزولون ويزول معهم طغيانهم .

وهكذا كان وقوف النجاشي وحده وإصراره على منح المسلمين حرية الكلمة هو الذي أنقذ الله تعالى به أولئك الصحابة رضي الله عنهم ، ولقد زال الطغاة أو زال طغيانهم بدخولهم في الإسلام وبقيت

مظاهر العدالة التي سطرها التاريخ للنجاشي شاهدة على ما للعدالة من بقاء وخلود .

وأخيراً خضع وزراء النجاشي لرأيه الذي يمثل العدالة والوفاء .

«قالت أم سلمة رضي الله عنها : - ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علَّمَنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ماهو كائن » .

وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم ، وكل أمر يتم عن طريق الشورى فهو أدعى إلى نجاحه ، لأنه يضم خلاصة عقول كثيرة .

وإن من مظاهر السمو التربوي في هؤلاء الصحابة أنهم لم يختلفوا ، بل أجمعوا على رأي واحد ، هو أن يعرضوا الإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ كائناً في ذلك ماهو كائن ، وإن هذا الاجتماع يعتبر ثاني خطوة من خطوات النجاح بعد الشورى .

هذا وإن الذي أجمعوا عليه يعتبر دليلاً على قوة توحيدهم واستسلامهم لله تعالى ، حيث عزموا على عرض الإسلام بعزة وإن كان في ذلك هلاكهم ، ولم يجعلوا لآرائهم واجتهاداتهم مدخلاً في ذلك الأمر لوضوحه ، حيث كان الأمر إما أن يَعرضوا الإسلام كاملاً كما جاء من عند الله تعالى ، أو أن يسلكوا سبيل المداهنة فيعرضوا منه ما يوافق

هوى ملك الحبشة ووزرائه ، وفي هذا سلامتهم في ظاهر الأمر ، لكنهم لقوة توحيدهم لم ينظروا إلى موضوع سلامتهم في الدنيا ، وإنما نظروا إلى سلامتهم في الآخرة ، فعزموا على عرض الإسلام كاملاً وعدم المداهنة .

وجاء في رواية أخرجها الحاكم والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن عمرو بن العاص وصاحبه قالا للنجاشي : إنهم - يعني المسلمين - لايسجدون لك ، قال : فلما انتهينا إليه زَبَرَنَا مَنْ عنده : اسجدوا للملك ، فقال جعفر : لانسجد إلا لله ، فقال النجاشي : وماذاك ؟ قال : إن الله بعث فينا رسوله وهو الرسول الذي بشر به عيسى عليه السلام برسول يأتي من بعده اسمه أحمد فأمرنا أن نعبد الله ولانشرك به شيئاً . . . الحديث [1] .

وهذا موقف عظيم من مواقف الاعتزاز بالإسلام والمحافظة على سلامة التوحيد ، مع رهبة الموقف الذي كانوا فيه ، حيث إن الأمر يتطلب في حياة الناس المعتادة أن يسلك جعفر وأصحابه طريق المداراة ، ولو أدى ذلك إلى المداهنة ، ولكن المؤمنين حقاً لايفعلون ذلك بل يمثلون الحق الذي أمرهم به دينهم مهما حصل عليهم من أذى ، وكذلك فعل المؤمنون

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٠٩ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي مجمع الزوائد ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح - ٦/ ٣٠-٣١ - .

في الحبشة رضي الله عنهم ، وقد سخر الله تعالى قلب النجاشي فكان نعم النصير والحامي لهم، وكان لهذا الموقف الشجاع وأمثاله من جعفر رضي الله عنه الأثر الكبير في قناعة النجاشي بالإسلام .

إنه لابد من الدعوة إلى الإسلام بكل مافيه من قوة وتميز وإن أنكره الناس في أول الأمر ، فإن قوة إصرار دعاته على تطبيقه والاستعلان به مع مخالفة التيار العام لهم يدفع المخالفين والحيارى ومن خلت أذهانهم من أي دين إلى التفكير الجاد في دوافع هذا الإصرار القوي ، وفي النهاية يهديهم التأمل الدقيق والتفكير السليم إلى عظمة هذا الدين الذي يدفع معتنقيه إلى المجابهة والمغامرة بالأنفس والأموال .

قالت أم سلمة رضي الله عنها في سياق روايتها : « فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم : ماهذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ؛ ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال له : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ،

ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ، فصدَّقناه وآمنَّا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وأفتتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك » .

وهكذا سألهم النجاشي عن دينهم الجديد الذي خالفوا فيه دين قومهم وجميع الأديان ، فكان جواب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مشتملاً على أمرين مهمَّين : أولهما نقد الدين الذي تحولوا عنه وهو الوثنية ، والثاني الإشادة بالدين الذي هداهم الله تعالى إليه وهوالإسلام وهكذا يكون الحوار الناجح . . البدء بالتخلية قبل التحلية .

فقد بدأ بتفريغ الأذهان من تصور أي صلاح وخير في دين الوثنية ، وركز في ذلك على عبادة الأصنام ، وهي انحدار فكري سحيق .

وذكر أكل الميتة ، وهو أمر تتقزز منه النفوس الطيبة .

وذكر إتيان الفواحش ، وهو أمر تنفر منه الطباع السليمة .

وذكر قطع الرحم وإساءة الجوار ، وهي أخلاق تتنافى مع خلق الوفاء الذي تنشده الأمم في شعوبها .

وذكر عدوان القوي على الضعيف ، وهذا هبوط عن مرتبة الإنسانية إلى الحيوانية ، حيث إن من سمة الحيوانات المفترسة العدوان على الحيوانات الضعيفة وافتراسها .

ثم أشاد بدين الإسلام الذي هداهم الله إليه ، فأثنى أولاً على رسول الله ﷺ الذي عن طريقه كانت هذه الهداية ، حيث ذكر أنه منهم يعرفون نسبه ونشأته فليس غريباً عنهم ، ووصفه بالصدق والأمانة والعفاف ، وهذه من أصول مكارم الأخلاق التي تقاد بها الأمم والشعوب إلى الخير والرشاد .

ثم ذكر موجزاً لدعوته استفتحه بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك .

وإنه لفرق هائل بين من يدعوك لعبادة مدبر الكون وخالق الأرض والسماوات الذي يملك إماتة الناس وإحياءهم ورزقهم . . ومن يدعوك إلى من هو دونه ولايمكن أن يوضع معه في مفاضلة ، حيث يدعوك إلى عبادة أصنام من الشجر والحجر لاتسمع ولاتبصر ولاتضر ولاتنفع .

ثـم ذكـر مـا دعا إليـه من مكارم الأخلاق التي تقوم عليهـا الحيـاة الكريمة ، وتنتظم بها أمـور الأمة من صـدق الحديث وأداء الأمـانة وصلة الرحم وحسن الجوار .

ثم أشار إلى ما دعا إليه من الكف عن مساويء الأخلاق التي تعوق قيـام المجتـمع الصـالح وتفرق بين أفراد الأمـة وتغـذي حيـاة الفـوضى والاضطراب ، فذكر الكف عن المحارم والدماء ، واجتناب الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات البريئات بالفاحشة .

ثم ذكـر إيمانهم بهـذا الدين الحنيف ، وتطبيـقـهم مـا جـاء فيـه من تكاليف ، وما قام به قومهم من العدوان عليهم ليعيدوهم إلى الوثنية ، وأن هذا هو الذي دفعهم إلى الهجرة ، وأشاد بجوار النجاشي ، وبين أن الذي حملهم على اختيار بلاده رجاؤهم التمتع بعدله المشهور .

وهـكذا جاء بيـان جعـفر الذي قـوض به أركان الجـاهلية وكـشف زيفها ، ثم شرح مقاصد الإسلام العالية التي يؤمن بسموها كل ذي عقل سليم مجرد من اتباع الهوى المنحرف .

وكان هذا البيان الرائع مقدمة لتلاوة آيات من كتاب الله تعـالى كان لهـا الأثـر النهـائي في حـسم الموقف لصـالح دعـاة الحق ، وهذا ما بينته أم سلمة في روايتها حيث قالت : « فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قـالت : فقال له جعفر : نعم ، فقـال له النجـاشي : فاقرأه عليّ ، قالت : فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) » .

ولم يرد في الخبر تحديد نهاية الآيات التي قرأها ولكن يظهر من سياق القصة أنه قد أكمل آيات قصة مريم في خبر ولادتها بعيسى عليهما السلام وما جرى منه من خطاب قومه آنذاك ، حيث كان إيراد القصة هو سبب بكاء النجاشي وأساقفته ، وهي قول الله تعالى :

﴿ كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (١) .

---

(١) سورة مريم ١ - ٣٣ .

ولقد كان جعفر رضي الله عنه حكيماً حينما أعرض عن قراءة الآيات التي تلي هذه الآيات حيث إنها تشتمل على الرد على النصارى في ادعائهم أن عيسى ابن الله جل وعلا عن ذلك ، لأنه كان في مقام الدعوة ولم يكن في مقام الجدل وبيان الحق في هذه القضية ، هذا على فرض أن السورة قد نزلت كلها في ذلك الوقت .

ولكن ما تحاشاه جعفر قد كادهم به عمرو كما سيأتي .

« قالت : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة [١] ، انطلقا فو الله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون » .

وهكذا كان اختيار جعفر بن أبي طالب موفقاً حيث اختار الآيات التي تتحدث عن مريم وابنها عيسى عليهما السلام أمام قوم يعظمونهما كثيراً ، وكان من آثار حسن الاختيار ، إلى جانب حسن العرض وصدق النية أن تأثر ذلك الملك ووزراؤه فبكوا جميعاً .

وهذا الموقف من النجاشي يدلنا على مدى وضوح دعوة النبي ﷺ أمام أهل الكتاب ، فلقد عرف أنه النبي الذي ذكر في كتبهم المقدسة ، وأنه ينزل عليه جبريل عليه السلام الذي كان ينزل على موسى عليه

---

(١) أي من مصدر واحد ، والمشكاة المكان الذي توضع فيه المصابيح .

السلام ، مع أنه لم ير النبي ﷺ ولم يعش معه ، فكيف بأهل الكتاب الذين عاشوا معه في المدينة واطلعوا على معجزاته وصاحبوا التنزيل ؟! .

وإنه لموقف رائع أن يبلغ التأثير على تلك الطبقة الراقية إلى حد البكاء ، مما يدل على تفوق ظاهر عند المسلمين آنذاك في مجال الدعوة .

وهكذا يجب على الدعاة أن يغتنموا الفرص المناسبة ، وأن يختاروا الموضوعات الملائمة مع ملاحظة صدق النية وحسن العرض .

« قالت - أم سلمة - فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم » .

« قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا - : لاتفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد » .

« قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال له : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه » .

وهكذا تفتقت عبقرية عمرو بن العاص عن مكيدة قاتلة للمسلمين لولا أن هيأ الله لهم وجود ذلك الملك العادل ، إذ إن اعتقاد المسلمين في عيسى عليه السلام مناقض تماماً لما عليه النصارى في دينهم المحرف ، حيث يعتقد المسلمون أنه عبد الله ورسوله ، ويعتقد النصارى أنه ابن الله تعالى .

وحينما علم المسلمون بذلك اشتد عليهم الأمر وعظم كربهم حينما أرسل إليهم الملك ليسألهم عن اعتقادهم في عيسى عليه السلام .

« قالت - أم سلمة - فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط ، فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله تعالى وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ماهو كائن » .

وهكذا اجتمع الصحابة وتشاوروا في الأمر ، وتساءلوا عما يقولونه للنجاشي إذا سألهم عن ذلك ، وقد أجمعوا على أن يقولوا له ما قال الله تعالى وماجاءهم به رسوله ﷺ كائناً في ذلك ما يكون .

وهذه هي المرة الثانية التي يجتمعون فيها ويتشاورون ثم يجمعون على رأي واحد . . فلله درهم ما أعلى تربيتهم ، وما أقوى إيمانهم ، وما أعز نفوسهم ! .

لقد صبروا قبل ذلك في مكة على قهر الطغاة وإذلالهم وتعذيبهم ، فهل هاجروا منها إلى الحبشة ليغيروا شريعة الله لمجرد مساءلة ستكون بينهم وبين النجاشي ؟! .

وليُفتَرض أنه سيقتلهم ، أو في أحسن الأحوال سيسفِّرهم من بلاده ، فإنهم قد استعدوا لتحمل كل ما ينتج عن قول كلمة الحق كائناً في ذلك ما يكون .

وهكذا يكون الإيمان القوي . . . وهكذا تكون الاستقامة .

« قالت - أم سلمة - : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم ؟ قالت : فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه [١] وكلمته [٢] ألقاها إلى مريم العذراء البتول [٣] » .

« قالت : فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود » .

« قالت : فتناخرت [٤] بطارقته حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم : الآمنون - من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ما أحب أن لي دَبْراً [٥] من ذهب وأني آذيت رجلا منكم .

ثم قال : ردوا عليهما هداياهما - يعني مندوبي قريش - فلا حاجة لي بها ، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه .

---

(١) يعني جعله روحا لمن أرسل إليهم .
(٢) يعني أنه خلق بقوله الله تعالى « كن » .
(٣) العذراء التي لم تتزوج ، والبتول المنقطعة لعبادة الله تعالى .
(٤) يعني أخرجوا اصواتا من مناخرهم استنكاراً لما سمعوا .
(٥) قال ابن هشام : « ويقال : دِبْراً من ذهب ، ويقال : فأنتم سيوم ، والدبر بلسان الحبشة : الجبل » .

« قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار ، مع خير جار » .

وهكذا نطق هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم بالحق ولم يخافوا في الله لومة لائم ، ولم يساوموا في أمور دينهم ، ولم يداهنوا مع أنهم في موقف الضعف ، وقد نزل بهم هذا الأمر العظيم الذي أهمهم وأقلقهم .

وبهذا تبين لنا من هذا الخبر كيف كان المسلمون الأوائل يتعرضون للأذى والكيد من اعدائهم ، وكيف كان سلوكهم في مواجهة الكيد ، إنهم لم يكونوا يستسلمون لأعدائهم ويداهنونهم ، وفي الوقت نفسه لم يكونوا يقاومون بالقوة والعنف وحالهم لاتسمح لهم بذلك ، بل كانوا يقاومون بالصبر على الأذى مع عرض ما يدعون إليه بالبيان الرائع الذي يمتلك القلوب ، ويجبر كل متجرد من الهوى الجامح على أن يميل إليهم ويعطف عليهم .

ولقد كانوا في كل محاوراتهم مستسلمين لله تعالى مفوضين إليه أمرهم فيما يكون من نتائج ، حيث لم تكن هذه النتائج تشغل بالهم ، وإنما الذي كان يشغل بالهم هو أن يوفقوا في عرض الإسلام كاملاً نزيهاً كما جاء من عند الله تعالى ، وهم يؤمنون أنهم ومن يحاورونهم في قبضة الله تعالى ، وأنه قادر على أن يسخر لهم خَلْقَه ليتم بهم نصر الحق وتأييد دعاته .

وهكذا سخر الله تعالى لهذه الفئة المؤمنة قلب النجاشي ، فنطق بالاعتراف بموافقة ماجاء في القرآن في شأن عيسى عليه السلام كما جاء في الإنجيل الصحيح ، وهذا أمر يصعب الاعتراف به لأن من لهم الهيمنة من النصارى لايعتقدون بذلك ، وقد جر عليه هذا الاعتراف متاعب من قومه ، وهو يعلم قبل النطق بذلك صعوبة هذا الأمر ، ولكن الله تعالى أنطقه بذلك نصرا لهذه الفئة المؤمنة ، وإعزازاً للإسلام ، وخذلانا للشرك وأهله ، فقد عاد وفد قريش بأسوأ حال وهما يجران أذيال الخيبة ، ويحملان معهما الهدايا التي رفض النجاشي قبولها ، وعاد المؤمنون المهاجرون بالعز والمنعة والأمن والطمأنينة .

وجدير بالذكر أن ننبه إلى أن عمرو بن العاص قد أسلم بعد ذلك ، وأصبح من زعماء المسلمين الذين فتح الله بهم البلاد وهدى بهم العباد رضي الله عنه وأرضاه .

هذا وإن هذا الموقف يعتبر مثالاً تطبيقيا لقول رسول الله ﷺ « من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مُؤْنة الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » أخرجه الإمام الترمذي وسكت عنه وحسنه السيوطي وصححه الألباني [1] .

---

(١) سنن الترمذي ، آخر كتاب الزهد « تحفة الأحوذي ٧/ ٩٧» .
الجامع الصغير ٦/ ٥١ رقم ٨٣٩٤ .
صحيح الجامع الصغير رقم ٥٩٧٣ « ٥/ ٢٥٨» .

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم قد التمسوا رضى الله عز وجل ، مع أن الظاهر في الأمر أنه يترتب عليه في هذه القضية سخط أولئك النصارى ، وهم الذين لهم الهيمنة عليهم ، فكانت النتيجة أن الله عز وجل سخر لهم قلب ملك الحبشة حتى نطق بالحق الموافق لدعوة النبي ﷺ مع مخالفته الصريحة لمعتقدهم المنحرف الذي قام عليه مُلكُهم ، وما يغلب على الظن من ثورة النصارى المتعصبين عليه .

فأي قوة هذه التي حملت ملك الحبشة على مخالفة المذهب السائد في بلده والذي يترتب على التمسك به بقاؤه في الملك ، مع إظهار موافقة قوم لا شأن لهم في بلده ولاقوة . . أي قوة هذه إن لم تكن تسخير الله تعالى إياه لنصرة قضية هؤلاء المسلمين ؟ .

وهذا دليل على أنه كان عند بعض النصارى إيمان صحيح بدينهم ، ولكنهم يكتمون ذلك لكون الغلبة والسيادة في الأرض لأصحاب الدين المحرف ، ومن الذين كانوا على الاعتقاد الصحيح ملك الحبشة ، وكان يُخفى إيمانه هذا مداراة لقومه إبقاء على نفسه وملكه ، فلما وقع في هذا الابتلاء أظهر إيمانه ، حيث أصبح بين أمرين : الأمر الأول أن يداري قومه وينكر على هؤلاء الصحابة اعتقادهم في عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام ، وهذا يلزم عليه جحد الحق ، وكيف يجحد الحق وهو أعلى رجل في الدولة ؟ كما يلزم عليه أن يبعد المسلمين من بلاده لكونهم طعنوا

في معتقد النصارى السائد ، ولو لم يفعل ذلك فإن رجال دولته لن يقروا بقاء المسلمين وقد قالوا ما قالوا .

والأمر الثاني : أن يظهر اعتقاده الصحيح الموافق لاعتقاد المسلمين إرضاء لربه وإراحة لضميره وانتصاراً لحزب الله المؤمنين مهما ترتب على ذلك من نتائج .

وهذا الأمر هو الذي سلكه من غير تردد ، وتحدى به علماء دينه ، ورجال دولته ، فكان بهذا الموقف الكبير من عظماء التاريخ .

ولقد حدث ما كان متوقعاً من قيام الثورة ضد ذلك الملك الصالح عقب تلك المفاوضات المذكورة .

« قالت - أم سلمة - : فو الله إنا لعلى ذلك إذ نزل به - يعني النجاشي - رجل من الحبشة ينازعه في ملكه ، قالت : فو الله ما علمتنا حَزَنًا حزنا قط كان أشد علينا من حزن حزنَّاه عند ذلك ، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فيأتي رجل لايعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه .

قالت : وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل .

قالت : فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مَنْ رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

فقال الزبير بن العوام : أنا ، قالوا : فأنت ، وكان من أحدث القوم سنًّا .

قالت : فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم .

قالت : فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه ، والتمكين له في بلاده .

قالت : فو الله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع علينا الزبير وهو يسعى ، فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه ، ومكن له في بلاده ، قالت : فو الله ما علمتُنا فرحْنا فرحة قط بمثلها .

قالت : ورجع النجاشي ، وقد أهلك الله عدوه ، ومكن له في بلاده ، واستوسق عليه أمر الحبشة [1] ، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة [2] .

---

(١) أي اجتمعوا عليه واستقر له الملك .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٦ ، السير والمغازي لابن إسحاق / ٢١٣ .

وأخرجه الإمام أحمد – مسند أحمد ٥/ ٢٩٠ ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي – المستدرك ٢/ ٣٠٩ – وقال الحافظ ابن كثير : هذا إسناد جيد قوي – السيرة النبوية لابن كثير – ٢/ ١١ – .

وحسن الحافظ ابن حجر إسناد الإمام أحمد – فتح الباري ٧/ ١٨٩ –

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع – مجمع الزوائد ٦/ ٢٧ –

وقول أم سلمة رضي الله عنها : « حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة » تريد من قدم منهم إلى مكة وكانت معهم ، أما بقيتهم فقد قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة عام خيبر وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

ويبين ذلك ما جاء في رواية البيهقي لهذا الخبر حيث جاء في آخره : « ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعا إلى مكة وأقام من أقام » [1] .

وهكذا قام الزبير بن العوام رضي الله عنه برحلة الاستطلاع النهرية، وهذا مثل من أمثلة شجاعته المبكرة وقد أثبت التاريخ بعد ذلك أنه رجل المغامرات والأهوال .

ولقد كان هناك احتمال كبير لأن يصاب في أثناء المعركة أو بعدها خصوصاً لكونه من العرب وللاحتمال الظاهر من أن المعركة قامت بين النجاشي والمتمردين من قومه بسبب مخالفته معتقداتهم في عيسى عليه السلام وتصريحه بأن ما قاله جعفر في ذلك هو الدين الحق ، ولكن الزبير كان يملك نفسا وثابة نحو المخاطر قد بُنِيَتْ على إيمان قوي بقضاء الله تعالى وقدره فأقدم على تلك الرحلة وطمأن المسلمين على مصير تلك المعركة .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٠٤ .

أما أولئك المسلمون الصالحون فإنهم قد قاموا بما يستطيعون من نصرة النجاشي ، حيث استعملوا السلاح الذي كان بإمكانهم أن يستعملوه ، وهو الدعاء ، وأكرمْ به من سلاح يمضي في سُدول الليل فيعطي مفعوله في تخذيل الأعداء وهزيمتهم ، لأن جميع المخلوقين في قبضة الله جل وعلا وتحت مشيئته فإن شاء نصر المسلمين ومن يناصرهم وإن كانوا قلة ، وإن من أسباب تَنَزُّل نصره تعالى ارتفاع دعاء المؤمنين الصادقين .

وهل يشك متأمل في بلوغ أولئك الصحابة أعلى درجات الصدق واليقين ؟

ولذلك فإن مما يوافق سنن الله تعالى أن ينزل نصره على النجاشي استجابة لدعاء هؤلاء المؤمنين الصادقين .

هذا وقد روى أبو نعيم الأصبهاني هذه الأخبار وغيرها ، وقال بعدها : وكل هذه الروايات عمَّن لايدفع عن صدق وفهم .

ومن الإضافات التي اشتملت عليها هذه الروايات ماجاء في رواية عروة بن الزبير أن عمرو بن العاص وصاحبه قالا عن رسول الله ﷺ : إن هذا الرجل الذي بين أظهرنا وأفسد فينا تناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك ، ونحن لك ناصحون ، وأنت لنا عَيْبة صدق ،

تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف وتأمن تجارنا عندك ، فبعَثنا قومُنا إليك لننذرك فساد ملكك [١] .

وفي هذه الإضافة دليل على أن وفد قريش لم يقتصر على مجرد المطالبة بإعادة المسلمين المهاجرين لمصلحة تخص بلادم وقومهم ، وإنما اتهموهم بإفساد بلادهم وحذروا ملك الحبشة منهم حتى لاينتقل إفسادهم إلى ملكه وبلاده .

وهكذا نجد دعاة ا لباطل وحماته في كل زمن يصورون دعاة الحق المصلحين على أنهم من المفسدين في الأرض ، وذلك لفساد تصور أهل الباطل وانقلاب مفاهيمهم حول مقومات الإفساد والإصلاح وصفاتهما المحددة لهما .

فالإصلاح في نظر هؤلاء يقوم على اعتبار تحقيق أهواء الزعماء المهيمنين على البلاد سواء كانوا مستقلين في نظراتهم للأمور وحكمهم أو كانوا خاضعين لمن هو أقوى منهم ، فما وافق رأي هؤلاء الزعماء الأحياء منهم والأموات فإنه هو الإصلاح في الأرض ، وما خالفه فهو الإفساد في نظرهم ، ولذلك كان كلام وفد قريش مركزا على بيان مخالفة المسلمين لما عليه الملأ من قومهم وماورثوه من أسلافهم بغضٍّ النظر عن كونه حقا في ذاته أو باطلا .

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٨٠ - ٨٤ .

وهذا يعتبر نوعا من الانغلاق الفكري وتحجيم الطاقات البشرية عن الانطلاق والبحث عن المستويات العليا من المبادئ والمثل .

ولقد كان ملك الحبشة على المستوى العالي من النظر والتأمل حيث قارن بين دعوة المسلمين ودعوة المشركين فرأى بوْناً شاسعا بين الدعوتين ، يتمثل في ارتفاع إلى أعلى درجات السمو في دعوة الإسلام ، وهبوط إلى أسفل دركات الانحطاط في دعوة الشرك فكان بكل قوته وطاقاته في صف الإسلام والمسلمين .

وإن النجاشي ليعتبر مثالا عاليا في التحري والتدقيق والبحث عن حقائق الأمور حيث لم يستفزه وفد الكفار ولم تستخفه دعواهم على المسلمين بأنهم سيفسدون عليه ملكه .

ولقد كان أقل تصرف سيفعله الذين لايتصفون بالعدالة أن يأخذوا الاحتياط لملكهم ودولتهم بإبعاد أولئك المتهمين ، خاصة وأن دولة الحبشة لاتستفيد أي شيء من إقامتهم فيها ، ولكن لفرط احساس ذلك الملك بفظاعة الظلم ودقة تحريه للعدالة لم يُقدم على هذا التصرف القاصر الظالم ، بل أرعى سمعه للطرفين حتى استوعب القضية وبان له وجه الحق فصرح بنصر الحق وأهله بالرغم من إدراكه نتائج ذلك المحرجة له أمام زعماء دولته .

فلله دره ! ما أعظمه من عالم دقيق العلم بخفايا الأمور ونتائجها وحاكم عادل لاتستهويه قوى البشر المبنية على الجبروت والطغيان ! .

ولاننسى في ختام هذا المقال أن نثبت شرفه الكبير باعتناق الإسلام ، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى فرحمه الله رحمة واسعة .

أما قوله « فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي » فيبينه ما أخرجه ابن إسحاق عن الزهري رحمهما الله قال : فحدثت عروة بن الزبير حديث أبي بكر بن عبد الرحمن عن أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال : هل تدري ما قوله : « ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه ؟ » قال قلت : لا ، قال : فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني أن أباه كان ملك قومه ولم يكن له ولد إلا النجاشي ، وكان للنجاشي عم له من صلبه اثنا عشر رجلا ، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة ، فقالت الحبشة بينها : لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملّكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام ، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلا فتوارثوا ملكه من بعده بقيت الحبشة بعده دهرا ، فغدوا على أبي النجاشي فقتلوه ، وملّكوا أخاه فمكثوا على ذلك حينا .

ونشأ النجاشي مع عمه وكان لبيبا حازما من الرجال ، فغلب على أمر عمه ونزل منه بكل منزلة ، فلما رأت الحبشة مكانه منه قالت بينها : والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه وإنا لنتخوف أن يملّكه علينا ، وإن ملّكه علينا لَيَقْتُلَنَّا أجمعين ، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه ، فمشوا إلى عمه

فقالوا : إما أن نقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا فإنا قد خفنا على أنفسنا ، قال : ويلكم قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم ! بل أخرجه من بلادكم .

قالت : فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم ، فقذفه في سفينة فانطلق به ، حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته .

قالت : ففزعت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحْمق[1] ، ليس في ولده خير ، فمرج على الحبشة أمرهم ، فلما ضاق عليهم ماهم فيه قال بعضهم لبعض : تعلَّموا ، والله إن مَلككم الذي لايقيم أمركم غيره لَلَّذي بعتم غَدْرَةً ، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه الآن .

قالت : فخرجوا في طلبه وطلب الرجل الذي باعوه منه ، حتى أدركوه فأخذوه منه ، ثم جاؤوا به ، فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك ، فملَّكوه .

فجاءهم التاجر الذي كان باعوه منه فقال : إما أن تعطوني مالي ، وإما أن أكلمه في ذلك ؟ قالوا : لانعطيك شيئاً قال : إذاً والله أكلمه ، قالوا : فدونك وإياه .

قالت : فجاءه فجلس بين يديه فقال : أيها الملك ابتعت غلاماً من

(١) الضمير يعود على النجاشي ، والمحمق بكسر الميم هو الذي يلد الحمقى .

قوم بالسوق بستمائة درهم فأسلموا إليّ غلامي وأخذوا دراهمي ، حتى إذا سرت بغلامي أدركوني فأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي .

قالت : فقال لهم النجاشي : لتعطنَّه دراهمه أو ليضعنَّ غلامه يده في يده فليذهبنَّ به حيث شاء ، قالوا : بل نعطيه دراهمه .

قالت : فلذلك يقول : ما أخذ الله مني رشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه .

قالت : وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته في دينه وعدله في حكمه [1] .

هذا وقد جاء في خبر آخر ما يدل على أن رجال دولة الحبشة ظلوا غاضبين على النجاشي لقوله عن عيسى عليه السلام بأنه عبد الله ، وفي ذلك يقول ابن إسحاق : وحدثني جعفر بن محمد عن أبيه قال : اجتمعت الحبشة ، فقالوا للنجاشي : إنك قد فارقتَ دينَنا وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه ، فهيأ لهم سُفنًا ، وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزِمْتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا .

ثم عَمَدَ إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥١ - ٣٥٤ .
وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر نحوه - مسند أحمد ١/ ٢٠١ - ٢٠٣ ، ٥/ ٢٩٠ - ٢٩٢ -

محمداً عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، ثم جعله في قبائه ، عند المنكب الأيمن .

وخرج إلى الحبشة ، وصفُّوا له ، فقال : يامعشر الحبشة ، ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتي فيكم ؟ قالوا : خير سيرة ، قال : فما بالكم ؟ قالوا : فارقت ديننا ، وزعمت أن عيسى عبدٌ ، قال : فما تقولون أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابنُ الله ، فقال النجاشي ، ووضع يده على صدره على قبائه : هو يشهد أن عيسى بن مريم [كذلك] ، لم يزد على هذا شيئاً ، وإنما يعني ما كتب ، فرضوا وانصرفوا عنه .

فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فلما مات النجاشي صَلَّى عليه ، واستغفر له [1] .

وقد أثبت هذا الخبر اهتماماً كبيراً من النجاشي بالمسلمين ، وأنه وضع خطة لنجاتهم ورحيلهم فيما إذا كانت الدولة لقومه وزال عنه الملك لعلمه بأن قومه لن يُبقُوا على المسلمين وقد قالوا ما قالوا عن عيسى عليه السلام ، وهذا شاهد على رسوخ إيمانه وقوة يقينه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٤ .

٩ – مثل من تأثر الصحابة بالقرآن وقوة تأثيرهم به

لقد سبق لنا بيان عظمة تأثر رسول الله ﷺ بالقرآن ، وقوة تأثيره به على سامعيه ، ولقد كان لصحابته رضي الله عنهم نصيب كبير من هذا المعنى ، حيث تأثروا برسول الله ﷺ ، فكانوا يخشعون لسماع كتاب الله تعالى ، وإذا تلوه كانوا حاضري القلوب متأثرين بما فيه من بديع الأسلوب وجلال المعاني .

وإن من أبرز الأمثلة على اتصاف الصحابة رضي الله عنهم بذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها عن خبر إجارة ابن الدَّغنَّة [١] لأبي بكر رضي الله عنه وقد جاء فيه : فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وآمنوا أبا بكر ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصلِّ وليقرأ ما شاء ولايؤذنا بذلك ولايستعلن به ، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره ولايستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وبرز ، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيَتَقَصَّف عليه

---

(١) ابن الدغنة بفتح الدال وتشديدها وكسر الغين هو سيد القارة وهي قبيلة مشهورة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وكانوا حلفاء بني زهرة من قريش – فتح الباري ٧/ ٢٣٣ .

نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لايملك دمعه حين يقرأ القرآن .

فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا له : إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة ، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فَأْته فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسلْه أن يرد إليك ذمتك ، فإنا كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذي عقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترد إليَّ ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفِرت في رجل عقدت له ، قال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى (١) .

وهكذا رأينا مظهراً من مظاهر رسوخ الإيمان وقوة حضور القلب مع الله تعالى تمثل في البكاء من خشيته عند تلاوة كتابه ، والبكاء مبعثه قوة التأثر إما بحزن شديد أو فرح غامر ، والمؤمن الحق يظل بين الفرح

---

(١) صحيح البخاري رقم ٢٢٩٧ - ٣٩٠٥ .
ورواه ابن إسحاق قال : حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٠ -

بهداية الله تعالى إلى الصراط المستقيم ، والإشفاق من الانحراف قليلاً عن هذا الصراط .

وإذا كان ذا قلب كبير كأبي بكر فإنه يشفق على من حوله من البشر التائهين ويتألم إذا لم يتمكن من هدايتهم ، ويتركز شعوره القوي كلما تلا كتاب الله تعالى فأصبح خياله مرة يحلق بين جنبات الأفق الأعلى ، حيث الملائكة المقربون والحياة الآخرة بما فيها من نعيم وعذاب ، وفوق ذلك كله هيمنة الملك الجبار جل شأنه ، ومرة يتأمل في مسيرة معركة الحق مع الباطل على أيدي من اصطفاهم الله تعالى لرسالته ، وما يعقب ذلك من مصارع الأمم الباغية ، ثم يلقي نظرة على الحائرين التائهين من حوله وهم يكررون ملحمة الطغاة السابقين وينتظرون مصيرهم ومصير تابعيهم المحزن إن لم يتجردوا من الهوى الجامح ويثوبوا إلى رشدهم . . كل ذلك وغيره من المعاني السامية الفياضة يعبر عنه بكاء أبي بكر وهو يتلو كتاب الله تعالى .

ونجد في رد أبي بكر جوار ابن الدغنة مثل المؤمن الحق الذي لايقبل المساومة في التنازل عن دعوته ، فليس واجب المسلم ينتهي عند قيامه بعبادة ربه الخاصة ، بل لابد من دعوة الناس إلى اعتناق هذا الدين والالتزام به ، فأبو بكر كان بإمكانه أن يصلي وأن يتلو القرآن داخل بيته ، ولكن كيف يصل إليه من تشتاق قلوبهم لرؤيته وسماع تلاوته إن فعل ذلك ؟ .

وها هو يرى أن من تجردت قلوبهم من الهوى المنحرف يستمعون لقراءته فيظلون خاشعين لمنظره الأخَّاذ ومظهره الآسر وهو يخلط تلاوته بالبكاء من خشية الله تعالى ، وهم يعلمون أن وراء هذا البكاء تأثراً ضاغطاً بمعاني سامية لاتتوفر لدى أكابرهم الذين يهيمنون عليهم ويصورون لهم رسول الله ﷺ والمؤمنين به بصورة الخطر الداهم والبلاء الهابط ، فيقارنون سريعاً بين قوم تَشِفُّ قلوبهم وجوارحهم بمبادئهم التي يؤمنون بها فتتجسَّم بصورة دموع فياضة وأخلاق سامية يعلوها التواضع والإيثار ويكسوها الحلم والسماحة . . وبين سادتهم الذين يتعاملون معهم بالكبرياء والأثرة ويُلَبِّسُون الحقائق التي أضحت كالشمس بلباس التزييف والتمويه الذي لا يخفى على ذي عقل مدرك وفكر نيِّر ، فلا يزال كل يوم ينحاز من معسكر الكفر رجال ممن نور الله بصائرهم وطهر قلوبهم ، سواء ممن لهم وزنهم الكبير بين قومهم أو ممن كانوا يستضعفونهم ، فتعلو بذلك كفة أهل الإيمان وتنخفض كفة أهل الباطل .

إنه لايُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها فلابد لكل مسلم أن يشعر وهو يقرأ القرآن الكريم أنه يتلو كلام الله تعالى وأن يستحضر عظمته في قلبه ، وأن يتدبر معانيه مع الشعور بأنه الكتاب الوحيد الذي بقي يمثل الوحي الإلهي ، واستصحاب الرغبة الأكيدة في طلب الاستهداء به وهداية الناس بنوره إلى الصراط المستقيم .

ولاشك أن كل ماذكر في شأن أبي بكر رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ أعظم من ذلك بكثير ، والصحابة رضي الله عنهم كل ما لهم من فضائل إنما هم في ذلك تلاميذ صاحب الرسالة العظمى ﷺ ، وقد مر علينا أمثلة من تأثر الكفار بسماع تلاوته وكلامه .

* * *

١٠ - أبو بكر أول خطباء الدعوة من الصحابة

لقد خرج المسلمون من المرحلة السرية التي دامت ثلاث سنوات وذلك بالجهر بالدعوة كما تقدم حيث جمع رسول الله ﷺ عشيرته الأقربين فدعاهم إلى الله تعالى ثم جمع قريشاً فدعاهم وحذرهم من عذاب الله تعالى .

ثم استمر رسول الله ﷺ في إعلان دعوته وكان كل فرد من المسلمين يبذل جهده في ذلك بشكل فردي .

وكانت أول محاولة للدعوة ا لجماعية بعد رسول الله ﷺ قام بها أبو بكر رضي الله عنه .

وقد جاء خبر ذلك فيما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي عن أبيه عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور فقال : « يا أبا بكر إنا قليل » فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته .

وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضُربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووُطيء أبو بكر وضرب

ضرباً شديداً ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزا (١) على بطن أبي بكر حتى ما يُعرَف وجهه من أنفه .

وجاء بنو تيم يتعادون فأجْلَت المشركين عن أبي بكر وحملَت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولايشكُّون في موته ، ثم رجعَتْ بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة .

فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ فمسُّوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحَّت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله ما لي علم بصاحبك . فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟ فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ، قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً (٢) فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح

(١) نزا : وثب .
(٢) دنفا : ثقيل المرض . قريبا من الموت .

وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم .

قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع ، قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح ، قال : أين هو ؟ قالت في دار ابن الأرقم ، قال : فإن لله علي ألا أذوق طعاماً ولا شراباً أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ .

قال فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبَّله وأكب عليه المسلمون ، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقَّة شديدة . فقال أبو بكر : بأبي وأمي يارسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي بَرَّة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار . قال فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت [1] .

لقد كان لأبي بكر رضي الله عنه شرف التقدم في دعوة الكفار الجماعية إلى الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، حيث قام فيهم خطيباً يدعوهم إلى الله تعالى .

ولقد كان أشجع الصحابة حقا كما شهد له علي بن أبي طالب

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٩ ، وذكره الحافظ ابن حجر في الاصابة في ترجمة أم الخير رقم ١٢٥٤ (٤/ ٤٢٩) مختصراً من رواية الإمام الطبراني ، ولم يضعفه ، فإقرار هؤلاء الأئمة له دليل على قبوله .

رضي الله عنه في خبر سابق [1] ، ولا أدل على شجاعته من بروزه في هذا الموقف العظيم الذي يحدث لأول مرة في تاريخ دعوة الإسلام .

لقد ضاق أبو بكر بموقف قومه من الإسلام ، وساءه أن يودِّعوا كل يوم عدداً منهم إلى النار ، كما ساءه وضع المسلمين الخانق حيث لايستطيعون أن يعبدوا الله تعالى ولا أن ينشروا دعوتهم بحرِّية تامة ، فألحَّ على رسول الله ﷺ بالظهور الجماعي وإعلان الدعوة العامة وسط مجامع الكفار .

ولكن ما أن قام يدعوهم إلى خيرهم وسعادتهم حتى قامت قيامتهم فانهالوا ضربا على المسلمين بشكل جماعي ، وكان لأبي بكر من ذلك الضرب النصيب الأكبر حيث أغمي عليه وأصيب في جسده إصابات بالغة .

وهكذا برز حقد الكفار على المسلمين بشكل عدواني حيث تضخم هذا الحقد في تلك الساعة فحجب نداء العقل السليم ، وأصبحت العواطف الثائرة هي ملكة الأجسام فوجهتها نحو البطش والانتقام .

وهبطت الإنسانية في أولئك القوم دركات نحو البهيمية وتحولت وسائل التخاطب والتفاهم والتعبير عن الرأي إلى الأيدي والأرجل

---

(١) انظر ص ٢٦ من هذا الجزء .

والنعال بدلاً من الألسنة ، تماماً كما تصنع البهائم بقرونها ومخالبها وقواطع أسنانها .

ذلك لأن الحكم في مثل تلك المواطن يكون للغوغائية ، ويضيع صوت العقل في خضَمِّ الهرج والمرج ، لأنه يكون مهدداً من قبَل أصحاب القرار الذين يستجيشون عواطف الناس ولايخاطبون عقولهم.

لقد كان في موقف المشركين هذا كبت واضح لحرية الكلام والتعبير عن الرأي ، وكان منطق العقل السليم يقتضي أن يردوا على الكلام بكلام مثله ، وإذا أبرز المسلمون خطيبهم أن يُبرز الكفار خطباءهم ، وما أكثرهم ! ولكنهم قد انخدعوا بما لديهم من وفرة في العدد والقوة ، إلى جانب ضعف المسلمين في الجانبين ، فحملهم كبرهم ، وقادهم صلفهم وغرورهم إلى الرد بمنطق الحماقة المبني على استخدام القوة ما دامت متوفرة ، وما دامت هي الأسرع في كبت الحرية وإسكات صوت الحق .

إن الطغيان يحمل أصحابه عادة على احتقار رأي الآخرين وإن كانوا من كبار العقلاء .

ويتوهمون لنظرتهم القاصرة أن بإمكانهم إسكات دعاة الحق باستخدام أنواع القوة ضدهم ، ويغترون بالنتائج القريبة التي يشاهدونها من أثر بسط نفوذهم وفرض هيمنتهم على من يعارضون أفكارهم

ومخططاتهم ، ويغفلون عن تذكر سنن الله تعالى الماضية التي من أبرزها أن دعوة الحق إنما تترسخ في النفوس ويتسع انتشارها من أثر صمود أهل الحق وثباتهم في وجه الطغيان .

ولا أدل على ذلك من أن المسلمين كسبوا بعد هذه الحادثة عملاقَي الإسلام العظيمين : حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حيث أصبح المسلمون بعد إسلامهما في وضع لايسمح للكفار بتكرار ذلك المشهد المثير المؤلم .

لقد كان صمود المسلمين في ذلك اليوم عظيماً ، وثباتهم على الحق رغم ذلك المشهد الفظيع مذهلاً ومؤثراً على كل ذي عقل سليم وتفكير قويم ، حيث لم يظفر المشركون بعد تلك المعركة ولابواحد من تلك الفئة المؤمنة ، لا على مستوى التخلي عن الدين والانحياز إلى معسكر الكفار ، فذلك شيء قد يئس منه المشركون ولكن على الأقل في فتور الحماس ، والانزواء بالدعوة في نطاق لايشكل خطراً على ديانة المشركين وتقاليدهم الموروثة .

بل الذي حدث كان بضد ذلك حيث تضاعف عدد المسلمين وكسبوا اتباعاً أقوياء . وحازوا على إعجاب عقلاء الكفار بصمودهم وثباتهم وتضحيتهم بأنفسهم وأموالهم في سبيل نصرة دينهم ، فكان هؤلاء العقلاء مناصرين لهم مدافعين عنهم بعد ذلك .

لقد حُمل أبو بكر إلى بيته مُشَوَّ الوجه فاقد الوعي من أثر ذلك الضرب المبرح ، حتى كان قومه يتوقعون هلاكه ، ومع ما أصابه من تلك الآلام الشديدة فإنه لما أفاق كان أول كلام نطق به أن سأل عن رسول الله ﷺ .

لقد كان موقفاً سامياً بلغ فيه أبو بكر أعظم ما يمكن أن يصل إليه المسلم من الحب في الله تعالى .

لقد كان يشعر بأن حياته وكل ما يملك لاتساوي شيئاً أمام سلامة رسول الله ﷺ .

ولقد وقف قومه مدهوشين ذهلين من هذا الموقف المحير . . رجل بين الحياة والموت ينسى نفسه ، ويذهل عن كل ألم يمُضُّ جسده ليتذكر شيئاً واحداً هو السؤال عن حال رسول الله ﷺ ، ثم يرفض تناول الطعام والشراب مع إلحاح أمه عليه حتى يروي غليله ويطفئ لهيب شغاف قلبه بالاطمئنان على سلامة رسول الله ﷺ واكتحال عينه برؤيته .

إن الآلام الجسدية وإن كانت مبرحة مضنية فإنها لاتساوي شيئاً أمام حرقة القلب بفقد أعز شيء يملك حبه ويهيمن على مشاعره .

ولئن عجزت الأقلام وكلَّت القرائح عن تصوير الدرجات العلى من الحب فإن موقف أبي بكر هذا يُجَسِّم القمة في هذه الدرجات .

وإنني لأجدني في هذا الموقف عاجزاً عن تصوير كل ما يجول في خاطري ومشاعري من جلال هذا المشهد المثير .

ولما لم يجد أبو بكر الجواب الشافي لدى أمه وجهها إلى امرأة مؤمنة كانت تكتم إسلامها ، وهي أم جميل فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوجة سعيد بن زيد رضي الله عنهم أجمعين ، وهي صاحبة الموقف المثير والدور الكبير في إسلام أخيها عمر كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ولما سألتها أم أبي بكر عن رسول الله ﷺ أنكرت معرفتها به وبابنها أبي بكر ، لأنها لاتزال في مرحلة السرية التي يعيشها بعض المسلمين بتوجيه من رسول الله ﷺ ، ولكنها مع ذلك تقدِّر خطورة سؤال أبي بكر وهي التي تعرف المكانة العظمى لرسول الله ﷺ في قلب أبي بكر خاصة ، وفي قلوب المؤمنين عامة ، ولهذا عرضت على أمه مرافقتها إلى ابنها لتطَمْئنه على سلامة رسول الله ﷺ بالأسلوب الذي لايتنافى مع الدور السري الذي تعيشه هي وأمثالها آنذاك .

ولم تتمالك نفسها وهي تشاهد منظر أبي بكر الفاجع حيث رفعت صوتها بالبكاء عليه ، ودعت على الكفارالذين نالوا منه وآذوه .

وحينما أعطاها أبو بكر الإشارة برفع الحرج عنها في إفشاء السر وهو الرجل الثاني في الإسلام أخبرته عن حال رسول الله ﷺ وعن مكان إقامته ، فآلى على نفسه أن لايذوق طعاما ولا شراباً حتى يصل إلى

رسول الله ﷺ ويطمئن عليه بنفسه ، فلم يكن إخبار فاطمة بنت الخطاب عن حاله بالذي يكفي لإطفاء لهيب الشوق وسكون الفؤاد ، حتى تكتحل العينان برؤية من ملأ جوانح القلب وأضفى عليه السعادة والفلاح .

وكان استقبال أبي بكر حافلا بمظاهر الحب والتقدير حيث أَكَبَّ عليه رسول الله ﷺ وقبَّله وأكب عليه المسلمون .

ولقد كان الموقف شديداً على المسلمين حيث لم يكن عند أبي بكر رغم سوء حالته الصحية إلا أفراد قبيلته من غير المسلمين فاضطر إلى الاستعانة بأمه وأخته في الإسلام لإيصاله إلى دار الأرقم .

لقد كان عدد المسلمين لايتجاوز ثمانية أو تسعة وثلاثين بعد أن هاجر إلى الحبشة من هاجر ، ولقد كانوا مجتمعين في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعد تلك الحادثة المروعة ، ولعل من أهداف اجتماعهم أن يحصل ضعفاؤهم على نوع من الحماية حتى لايُستأصلوا من قبائلهم .

ولكن ذلك الوضع الخانق لم يطل حيث هيأ الله تعالى لنصر الدعوة بطلين من عمالقة الإسلام هما حمزة وعمر رضي الله عنهما كما تقدم .

ولم ينس أبو بكر وهو في تلك الحال أن يطلب من رسول الله ﷺ الدعاء لأمه بالهداية ، وقد كانت فرصة مواتية حيث واجهت الرسول ﷺ بنفسها ، وقد لاتستجيب لمثل ذلك الموقف في غير ذلك الظرف ، إضافة

إلى ما اعتراها من رحمة شديدة بولدها ، فالوضع مناسب لدعوتها لرغبتها الأكيدة في إيصال السعادة لولدها المنكوب ، وهو يدرك أنها تقدر فَرَحَه الغامر بإسلامها لو أسلمت ، فكان من الحكمة البالغة أن يغتنم هذا الظرف الملائم لانقيادها نحوالإسلام ، وكأن لسان حاله يقول إن كنت يا أماه تتشوقين إلى إبلالي من المرض وتمتعي بالصحة والسعادة فإن ذلك إنما يكون بدخولك في الإسلام .

لقد كان رضي الله عنه بارعاً حقاً في معرفة مداخل النفوس وطرق التأثير عليها ، واغتنام الفرص المناسبة للدعوة ، فكان بذلك وغيره أبرع الدعاة في الإسلام بعد رسول الله ﷺ .

ولقد نال حظاً كبيراً من السعادة حينما أنقذ الله تعالى أمه من النار بدعاء رسول الله ﷺ لها حيث أسلمت من ساعتها ، فرضي الله عنه وعن أمه « أم الخير » .

* * *

١١ – مثل من التنافس في العمل الصالح

(عثمان بن مظعون يرد جوار المشركين)

لقد كان المسلمون في مبدأ الإسلام وهم في مكة يتعرضون لأذى شديد من صناديد الكفر وزعماء الضلال ، وكان ضعفاء المسلمين والذين ليس لهم عشائر قوية تحميهم يتحملون أكثر هذا الأذى ، أما المسلمون من أشراف قريش وأصحاب الوجاهة فيهم فإنهم يجدون من أفراد عشيرتهم من الكفار من يجيرهم ويحميهم من الأذى .

وكان من هؤلاء عثمان بن مظعون رضي الله عنه حيث دخل في جوار الوليد بن المغيرة أحد زعماء قريش ، وذلك بعد عودتهم من الحبشة حينما سمعوا أن قومهم قد أسلموا ولم يكن ذلك الخبر صحيحاً ، فلما وصلوا إلى مكة وجدوا الكفار أشد ماكانوا عداء للمسلمين ، فدخل بعضهم مكة بجوار من أكابر المشركين ، وقد دخل عثمان بن مظعون الجمحي في جوار الوليد بن المغيرة كما ذكر ابن إسحاق [١] .

ولكنه فكر فيما يصيب إخوانه من ضعفاء المسلمين على يد الكفار من الأذى ، وما يترتب على صبرهم العظيم من الأجر الجزيل والإيمان القوي ، فرأى أن بقاءه في جوار الوليد بن المغيرة نقص كبير ، ويفوت عليه منافع دينية جمة ، فذهب إلى الوليد ابن المغيرة ورد عليه جواره ، وفضل أن يبقى في جوار الله تعالى وحده كإخوانه من المستضعفين .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٥ .

وفي سياق هذه القصة يقول محمد بن إسحاق رحمه الله فيما يرويه عن شيوخه : لما رأى عثمان بن مظعون مافيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة قال : والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لايصيبني لنقص كبير في نفسي .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس وَفَتْ ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ، فقال له : لم يا ابن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي ، قال : لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن استجير بغيره .

قال : فانطلقْ إلى المسجد فَارْدُدْ عليّ جواري علانية كما أجرتك علانية ، قال : فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد عليّ جواري ، قال : صدق قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكني قد أحببت أن لا أستجير إلا بالله فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان فقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

قال عثمان : صدقت ، قال لبيد :

وكل نعيم لامحالة زائل .

قال عثمان : كذبت . نعيم الجنة لايزول ، قال لبيد بن ربيعة : يامعشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تجدْ في نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى شَرَى أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضَّرها .

والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان ، فقال : أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغَنيَّة ، لقد كنت في ذمة منيعة .

قال : يقول عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

فقال له الوليد : هلمَّ يا أبن أخي إن شئت فَعُد إلى جوارك ، فقال : لا [1] .

وفي هذه القصة يتبين لنا باب من أبواب الجهاد في سبيل الله تعالى تمثَّل بمحاولة إظهار عزة الإسلام ، وذلك بالاعتزاز بالله تعالى وحده وإن تمكَّن المسلم من الاحتماء بأقاربه وعشيرته ، وذلك فيما إذا لم تتطلب مصلحة الدعوة غير ذلك ، فإذا اقتضت مصلحة الدعوة قبول حماية

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٦ ، واخرجه الإمام البيهقي بإسناده عن موسى بن عقبة وذكر نحوه - دلائل النبوة ٢/ ٢٩١ ٢٩٣ - .

المشركين فإن هذا هو الأفضل كما كان النبي ﷺ في حماية عمه أبي طالب .

وفيها إشارة إلى ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من التنافس في سبل الخير والعمل الصالح ، وهذا يدل على الإيمان القوي بالله تعالى والرغبة الصادقة فيما عنده من الثواب .

كما أن في هذه القصة فضيلة إنكار المنكر وإن كان المسلم في حال ضعف وقلة ناصر ، لأن في ذلك إظهاراً للحق الذي قد ينطمس في غمرة الباطل ، فقد أنكر عثمان بن مظعون رضي الله عنه قول لبيد : وكل نعيم لا محالة زائل ، حيث كذبه في ذلك وبين أن نعيم الجنة لايزول ، وتحمل في سبيل ذلك الأذى من المشركين حيث أصيبت عينه في سبيل الله تعالى .

ويبلغ عثمان رضي الله عنه قمة الإيمان حينما لم يندم على ترك جوار الوليد بن المغيرة الذي حصل له هذا الأذى بسبب تخليه عنه حيث يبين للوليد بن المغيرة حينما لامه على تخليه عن جواره بأنه يتمنى أن تصاب عينه الأخرى في سبيل الله تعالى .

وهذا هو الفرق بين من يُقدم على التضحية عن قناعة ويقين راسخ وبين من يتحمس للإقدام على أمر من أمور الجهاد ثم يتراجع حينما

يتعرض للأذى في سبيل الله تعالى فإن هذا يعرض إيمانه للضعف ويضر بالدعوة الإسلامية .

كما أن عثمان رضي الله عنه لم يَفُتْه أن يقرر عظمة الله تعالى في نفوس المسلمين حيث قال : وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

لقد كان رضي الله عنه في حمى ذلك الرجل الكبير من قريش والرسول ﷺ قد أذن للصحابة بالاحتماء بالمشركين لضعفهم وقلتهم ولكنه أبى أن يرى إخوانه يعذبون في الله وهو يتمتع بذلك الحمى ، إنه كمن لبس الدرع في القتال فلما رأى الشهداء من حوله تاقت نفسه للشهادة فرمى الدرع وواجه الأعداء حاسراً طلباً لمواطن الشهادة .

* * *

١٢ - مثل من العزة والشهامة

(إسلام حمزة بن عبد المطلب)

لقد كان الله تعالى يهيىء لرسوله ﷺ من يدافع عنه . إما من عشريته الأدنين الذين يقومون بحمايته والذب عنه ، أو من غيرهم من الكفار الذين لديهم مسكة من عقل وبقية من ضمير ، فيواجهون سفاهة السفهاء بما يخفف من حدة الموقف ، أو من المؤمنين به الذين يرون الدفاع عنه واجباً دينياً .

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله قال : حدثني رجل من أسلم كان واعية أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، وكانت تسمعه مولاة لعبد الله بن جدعان .

ثم انصرف أبو جهل عنه ، فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قَنَص له ، وكان صاحب قنص يرميه يخرج له ، وكان إذا رجع من قَنَصه لم يَصلْ إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة .

فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، قالت له :

ياأبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام : وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ .

فاحتمل حمزةَ الغضبُ لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول كما يقول ؟ فَرُدَّ ذلك عليّ إن استطعتَ .

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإني والله قد سَبَبْتُ ابن أخيه سبا قبيحاً ، وتَمَّ حمزة رضي الله عنه على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله ، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع ، وأنّ حمزةَ سيمنعه ، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [1] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٢ .
وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله - تاريخ الطبري ٢/ ٣٣٣ -
وأخرجه الإمام الطبراني من طريق ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق وذكر نحوه كما أخرجه من حديث محمد بن كعب القرظي وذكر نحوه - المعجم الكبير ٣/ ١٥٢ - ١٥٣ رقم ٢٩٢٥ و ٢٩٢٦ -
وذكر الطريقين الحافظ الهيثمي وقال عن الأول : رواه الطبراني مرسلا ورجاله ثقات ، وقال عن الثاني : رواه الطبراني مرسلا ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٧ -
وأخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق وذكر نحوه وسكت عنه هو والذهبي - المستدرك ٣/ ١٩٢ -

وهكذا كانت هذه الواقعة سبباً في إسلام حمزة رضي الله عنه حيث ثار أوَّلاً حمية لابن أخيه ﷺ ، ثم أعلن إسلامه لَمّا أراد الله له من الخير ولِمَا يريد أنْ يُجري على يديه من الانتصار لرسول الله ﷺ والمؤمنين ورفع راية الإسلام .

ومن هذه القصة تتبين لنا شجاعة حمزة رضي الله عنه التي أصبحت مضرب المثل ، فلقد واجه زعيماً كبيراً من زعماء مكة له مكانته العالية بين قومه ، وهو من الذين يُرهبون الضعفاء بألسنتهم السليطة ونظراتهم الحادة ، حيث قصد إليه وهو في مجمع من قومه فشجه شجة منكرة وأهانه أمام الملأ من قومه وتحداه أن يرد عليه إن استطاع ، ولم يحسب حساباً لقومه أن يجتمعوا عليه ويوقعوا به الضرر .

وهكذا تبدو شجاعة الشجعان حيث يندفعون في نصر قضاياهم من غير نظر إلى عواقب ذلك ، فيلغون من حسابهم كل الاحتمالات الواردة ويهيمن على مشاعرهم الانتصار للقضية التي يدافعون عنها ، فيقومون بالأعمال المدهشة ، التي تذهل الحاضرين وتشغلهم بتحليل دوافعها عن مواجهتها والتصدي لها .

وعاد أبو جهل يعتذر لأبي عمارة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، ويهدئ من ثورة بني مخزوم الذين ثاروا له ، وأرادوا أن ينالوا من حمزة ، انبهاراً منه بهذه الشجاعة النادرة ، التي ألجمت أبا جهل

وقومه ، فجعلتهم يكفون عن حمزة حتى وهو يعلن إسلامه على غير عادتهم في معاملة المسلمين في أول إسلامهم .

وهكذا فتح الله قلب حمزة رضي الله عنه للهداية ، وكان مفتاح هدايته الانتصار للنبي ﷺ ، فاعتز المسلمون بإسلامه ، وتراجع زعماء قريش عن بعض ما كانوا ينالون من رسول الله ﷺ لعلمهم بأن عمه سيحميه .

إن حمزة لم يكن أسلم يومذاك ، ولكن دفع به تحدي أبي جهل الذي أهان ابن أخيه إلى أن يعلن تبعيته له على دينه ، حيث إن هذا الأمر هو أعظم شيء يغيظ به أبا جهل ليشفي غليل صدره منه ، فكأنما قال لأبي جهل : إذا كان دين ابن أخي هو الذي حملك على إهانته فإنني أتحداك باتباعه على دينه ، فإعلان إسلامه كان تعصبا لابن أخيه ولم يكن عن اعتقاد قلبي ، ثم هداه الله تعالى إلى الإسلام فذهب إلى النبي ﷺ وأسلم .

* * *

١٣ - إسلام طليب بن عمير وجهوده في الدعوة

أخرج أبو عبد الله الحاكم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : أسلم طليب بن عمير في دار الأرقم ثم خرج فدخل [١] على أمه وهي أروى بنت عبد المطلب فقال : تبعت محمداً وأسلمت لله رب العالمين جل ذكره فقالت أمه : إن أحق من وازرت ومن عاضدت ابن خالك والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لتبعناه ولذببنا عنه قال : فقلت : يا أماه وما يمنعك أن تسلمي وتتبعيه فقد أسلم أخوك حمزة ، فقالت : أنظر ما يصنع أخواتي ثم أكون إحداهن قال : قلت اسألك بالله إلا أتيته فسلمت عليه وصدقته وشهدت أن لا إله إلا الله قالت : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وكانت بعدُ تعضد النبي ﷺ بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره .

قال الحاكم : صحيح غريب على شرط البخاري ولم يخرجاه [٢] .

وأخرجه ابن سعد من طريق شيخه الواقدي عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، وذكر مثله [٣] .

ثم ذكر عن طريق الواقدي بإسناده عن برة بنت أبي تجراة قالت : عرض أبو جهل وعدَّة من كفار قريش للنبي ﷺ فآذوه فعمد طليب بن

---

(١) جاء في المستدرك : ثم دخل فخرج » وهو خطأ من النساخ والتصويب من طبقات ابن سعد .
(٢) المستدرك ٣/ ٢٣٩ .
(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ٤٢ .

عمير إلى أبي جهل فضربه ضربة شجه فأخذوه وأوثقوه ، فقام دونه أبو لهب حتى خلاه . فقيل لأروى ألا ترين ابنك طليباً قد صير نفسه غرضاً دون محمد ؟ فقالت : خير أيامه يوم يذب عن ابن خاله وقد جاء بالحق من عند الله فقالوا : ولقد تبعت محمداً ؟ قالت : نعم .

فخرج بعضهم إلى أبي لهب فأخبره فأقبل حتى دخل عليها فقال : عجباً لك ولاتِّباعك محمداً وترك دين عبد المطلب ، فقالت : قد كان ذلك فقم دون ابن أخيك واعضده وامنعه فإن يظهر أمره فأنت بالخيار أن تدخل معه أو تكون على دينك ، فإن يُصَب كنت قد أعذرت في ابن أخيك . فقال أبو لهب : ولنا طاقة بالعرب قاطبة ؟ جاء بدين محدث . قال : ثم انصرف أبو لهب .

قال محمد بن سعد : وسمعت غير محمد بن عمر يذكر أن أروى قالت يومئذ :

إن طُلَيباً نصر ابن خاله ... آساه في ذي ذمَّة وماله [1]

وهكذا أسلم طليب بن عمير رضي الله عنه والنبي ﷺ ما زال في دار الأرقم في ظرف كان شديد الصعوبة ، ولم يكتف بالدخول في الإسلام بنفسه بل دعا أمه أروى بنت عبد المطلب إلى الإسلام وألح عليها

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٤٢ - ٤٣ ، وذكر الحافظ ابن حجر الخبرين نقلا عن ابن سعد الإصابة ٤/ ٢٢٢ رقم ٣٣ .

في ذلك لما تمنعت قليلاً حتى أسلمت وكانت تدافع عن رسول الله ﷺ وتحض على نصرته .

وهكذا كسب الإسلام هذا الجندي الباسل الذي كانت نهايته الشهادة في معركة أجنادين ، وكسب أمه التي كانت من جنود الإسلام في مجالها النسائي رضي الله عنهما .

وفي الخبر الثاني بيان موقف من مواقف طليب وأمه رضي الله عنهما في الدفاع عن رسول الله ﷺ ، حيث أقدم طليب على الهجوم على أبي جهل لما آذى رسول الله ﷺ ، والهجوم على هذا الرجل يعتبر مغامرة جريئة حيث كان منيعاً في قومه شديد العداوة للإسلام وأهله فالذي يقدم على الهجوم عليه سيتوقع أذى بالغاً من قومه وقد فعلوا ذلك لولا أن خاله أبا لهب خلصه من أيديهم .

وموقف أمه أروى كان جليلاً حيث أيدت ابنها على ما قام به من نصرة رسول الله ﷺ ولم تعبأ بعذل قومها لها ولابنها بل أظهرت إسلامها ونصرتها لرسول الله ﷺ .

* * *

١٤ – مثل أعلى للتحول بعد الهداية

(إسلام عمر بن الخطاب)

حينما تتجمع خصال أمة من الناس في رجل واحد يصنع العجائب بقدرة الله تعالى ، إذا آمن واستقام ، لأنه بإيمانه بالله تعالى يكون فكره مشدوداً إلى الأعلى ، إلى صانع الكون ومدبره فتسمو مداركه وتصفو تصوراته ، وباستقامته تزكو نفسه ، وينمو إيمانه ، ويتطهر قلبه وجوارحه من الزلل والانحراف .

ولكنه حينما يظل على الكفر فإنه يبقى تائهاً مقصوراً فكره على محقرات الأمور التي لاتعدوها تصورات الناس المجردة من الإيمان ، وتظل مواهبه حبيسة مكبوتة لأن حجاب الكفر يعرقلها بالأغلال ، ويحيطها بالظلمات الحالكة ، فلا تنطلق إلا في حدود ضيقة تحكمها عادةً الأعراف القومية بما فيها من كبت وانحراف .

وحينما يؤمن ولا يطبق حدودالاستقامة تعود إلى الفكر حجب الجاهلية بشكل آخر يتسم بالشعور الدائم بالذنب الذي يعطل الفكر ويقيده فلا يدعه ينطلق إلى الجو الأعلى الرحيب .

فكما أن الكفر بمختلف مذاهبه أغلال مقيدة للعقل السليم والفكر النافذ فإن المعاصي كذلك وإن اختلفت مناحي الغَل والتقييد .

وهكذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جاهليته حينما لم يكن شيئًا مذكورا إلا في حدود أعراف قبيلته الجاهلية . . ثم كان ما كان بعد إسلامه من عظمته الخارقه ، التي أصبحت مضرب المثل عبر الأجيال .

ولقد عبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عما أحدثه إسلام عمر في الأمة بقوله : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه [١] .

وقال أيضاً « مازلنا أعزة منذ أسلم عمر » [٢] .

لقد كان عمر رضي الله عنه شديد القسوة على المسلمين قبل أن يسلم ، فلما هداه الله للإسلام حوَّل قوته العظيمة للدفاع عن الإسلام والمسلمين فكان عظيم التحدي للكفار حتى اعتز به المسلمون ، وفرق الله به بين الحق والباطل ، ولذلك لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق .

وكان من قصة إسلامه فيما رواه ابن إسحاق رحمه الله :

« أن أخته فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها كانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه ، وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها

(١) اخرجه ابن أبي شيبة والطبراني « فتح الباري ٧/ ٤٨» .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة باب ٦ « الفتح ٧ / ٤١ » .

سعيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام - رجل من قومه من بني عدي بن كعب - قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرتّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن »[١] .

وإخفاء الإسلام في حال الفتنة وضعف المسلمين له مزاياه المتعددة ، من السلامة من الأذى الذي قد يجر إلى الافتتان ، والقيام بخدمة الدعوة في أمور لايستطيع القيام بها من استعلن بإسلامه ، ولكن الاستخفاء بالإسلام ليس هو ا لأصل وإنما هو مشروع عند الضرورة وعند احتياج الدعوة ، فالأصل هو إعلان الإسلام والقيام بالدعوة إليه لتعلو كلمة الحق وتقوم الحجة على الغافلين .

قال : « فخرج - يعني عمر - متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذُكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين مابين رجال ونساء ، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم ممن أقام ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة » .

وهل كان خروج عمر لقتل النبي ﷺ بدافع شخصي بحكم ما كان

---

(١) يعني هي وزوجها سعيد بن زيد كما سيأتي .

يهيمن على نفسه من عوامل قوية مؤثرة حيث كان شديد التمسك بتراث الآباء والأجداد ، عظيم الغيرة على مجد قريش المكتسب آنذاك من التقاليد والعادات الجاهلية مع ما جبل عليه من قوة الشكيمة والإصرار العنيف على إنكار ما لايقتنع به ، أم كان ذلك بتحريض من زعماء الكفار ؟

الظاهر أنه كان بتحريض من زعماء الكفار مع ملاحظة الدوافع المذكورة ، ومما يدل على ذلك ما جاء في رواية أخرى من أن أبا جهل جعل لمن يقتل محمداً مائة ناقة ، قال عمر : فقلت له : يا أبا الحكم آلضَّمان صحيح ؟ قال : نعم ، قال : فتقلدت سيفي أريده . . . ثم ذكر خبر تعريجه على بيت أخته وإسلامه بعد ذلك .

ذكره الحافظ ابن حجر من رواية أبي نعيم [1] .

وكون أبي جهل يجعل لمن يقتل رسول الله ﷺ مائة من الإبل دليل على تأصل عدواة الكفار للإسلام ودعاته ، فهذا العوض كبير آنذاك ، وخصوصاً إذا كان قد بذل من فرد واحد .

قال ابن إسحاق في سياق روايته : « فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر : فقال : أريد هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله » .

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٨١ .

وهنا يكشف عمر عن قصده بجلاء مع بيان المسوغات التي دفعته إلى محاولة ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة .

فاجتماع قريش في نظره هدف رفيع في حد ذاته بغَضِّ النظر عما اجتمعوا عليه هل هو حق أم باطل ؟ ومن فرق جماعتهم فهو ملوم وإن كان يدعو إلى الحق ويحارب الباطل .

وانتقاد ما أجمع عليه كبراء قريش يعتبر تسفيها لعقولهم لأن ما أجمعوا عليه غير قابل للنقد ولا لمجرد التفكير في وزنه بميزان العقل السليم .

وعيب دينهم وسب آلهتهم يعتبر جريمة في حق فاعله يستحق عليها القتل لأن في ذلك خروجاً عن المألوف من تقديس وتعظيم ما عليه الآباء والأجداد وإن كان هذا التراث لايثبت أمام العقل السليم والتفكير المتأمل .

وهذا يعتبر نموذجاً من الاعتقاد السائد في عقول الكفار آنذاك حيث أصبح يغطي على مشاعرهم ولايتيح لهم مجالاً للتفكير والتأمل .

« فقال له نعيم : والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك ياعمر أتُرى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً » .

وهنا يأتي دور الاستخفاء بالدين لدى بعض المسلمين في الظروف

الصعبة التي يمر بها المجتمع المسلم ، فكانت مهمة نعيم رضي الله عنه - والحالة هذه - أن يحاول بكل إمكانه ثَنْيَ عمر رضي الله عنه عن عزمه الذي صمم عليه ، ونجح في مهمته أيما نجاح حيث بدأ أولاً بتذكيره بمغبة إقدامه على قتل رسول الله ﷺ ، والذي يعيش في الجاهلية أيًا كانت هذه الجاهلية وأيًا كان سموه العقلي لا يرضى بأن يفقد حياته مهما كان الهدف الذي ينطلق لخدمته ، وإنما ينطلق من يقدم على المهلكة من هؤلاء لأن المُثُل الخيالية تغطي على فكره ، وضغط الماضي والحاضر يغشى على عقله فيحجب عنه العواقب الوخيمة التي تترتب على إقدامه على الأمر الذي يريده .

وقد استطاع نعيم بهذا أن يمتص قدراً من الغضب الذي كان يساور عمر ولكن بقي أن يشغله بمهمة يفرغ فيها كل ما تبقى من غضبه حيث قال له : « أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأي أهل بيتي ؟ قال ختنك [1] وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، واختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله اسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما » .

وهنا قد يتساءل المتأمل : كيف ساغ لنعيم أن يبوح بسر بيت مسلم كان يخفي إسلامه ، وقد يعرضهم بذلك للهلاك ؟ ! .

ويمكن أن يكون الجواب بأن المهمة الكبرى آنذاك كانت هي حماية

---

(١) يعني زوج أخته .

النبي ﷺ ، فتعرُّض فرد أو بيت مسلم للأذى فداء للنبي ﷺ ليس كثيراً ، إضافة إلى أنه لم يكن من المعهود في ذلك المجتمع الإقدام على قتل المسلمين ، لا لأن عدواة الكفار لهم لم تصل إلى هذا الحد ، وإنما لأن قتل فرد أو أفراد من المسلمين لن يؤثر في تعويق سير الدعوة الإسلامية ، بل كان اهتمامهم مُنصَبّاً على تعذيب المسلمين ليرتدوا عن إسلامهم ، فيكسب الكفار نجاحاً في الصد عن الإسلام ، وقد يموت بعضهم تحت التعذيب كما فعلوا مع سمية رضي الله عنها .

أما التوجه بالقتل عمداً فقد كان منصرفاً إلى النبي ﷺ ، حيث عزموا على ذلك عدة مرات لأن قتله يعني ذهاب الإسلام .

« قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها « طه » يقرئهما إياها » .

وهكذا تكون التربية الإسلامية بكتاب الله تعالى فهو زاد الصحابة رضي الله عنهم يتلونه ويتدارسونه ويحفظونه ويعملون بأحكامه ويتأثرون بمواعظه ، يتعلم اللاحق من السابق ، وهكذا كانوا في عزلة فكرية عما يدور في المجتمع الجاهلي فلا يتأثرون إلا بما وقر في قلوبهم من كتاب الله تعالى .

وهذا مثل من المنهج التعليمي الذي كان رسول الله ﷺ يربي عليه

المسلمين آنذاك ، حيث كان يوجه المسلمين القدامى الذين يحفظون ما نزل من القرآن أو بعضه إلى المسلمين الجدد ليعلموهم القرآن الكريم .

« فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم ، أو في بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ماهذه الهيْنمة التي سمعت ؟ قالا له : ماسمعت شيئاً ، قال : بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمه بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجَّها فلما فعل ذلك قالت له اخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك » .

وهكذا يفرِّغ عمر غضبه كله في البطش بابن عمه وأخته ، ويتمُّ لنُعَيم ما أراد من صرف عمر وهو في حال الغضب الشديد عن رسول الله ﷺ ، وذلك ليتمَّ ما أراده الله تعالى من هداية عمر وإعزازه لدين الله تعالى .

وهكذا رأينا ابن عمه وأخته يعلنان إسلامهما أمامه بعزة وقوة ويُظهران التحدي له ، بعد أن بطل مفعول السرِّية التي كانا يحيطان إسلامهما بها ، فإن مصلحة الدعوة الإسلامية تقتضي أن لايُظهر المسلم إسلامه بضعف ، وإنما يظهر الاعتزاز به واحتقار ماحوله من الجاهلية ، حتى لايختلط ببعض تعاليم الجاهلية .

« فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : اعطيني الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً أنظر ماهذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً » .

لقد كان لموقف زوج أخته وابن عمه سعيد بن زيد الذي كان فيما بعد أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وموقف أخته فاطمة أثر ظاهر في تغيُّر نظرته إلى الإسلام ، ولعله لم يعهد منهما من قبل تصلبا وإصراراً على الرأي وقوة في المجابهة كما شاهدها ذلك اليوم بل لعله لم يواجَهْ بالتحدي قبل ذلك من قرابته وهو الرجل القوي المهيب .

لابد أنه قد انقدح في نفسه أمام هذا المشهد أن سرّاً عظيماً يكمن وراء هذا الدين الجديد وكتابه الذي سمعهما يتلوانه ، فطلب من أخته أن تطلعه على الصحيفة ، وخشيت أخته على كتاب الله تعالى أن يهينه أو ينتزع الصحيفة منهما فيفقدا أقدس شيء يعتزان به ، فقالت : « إنا نخشاك عليها قال : لاتخافي ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها» .

وإن هذا التنازل الذي أظهر عمرَ متواضعاً وهو الرجل المتجبر قبل ذلك لأولُ علامات انجذابه للإسلام وإعجابه به .

« فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له : يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لايمسها إلا الطاهر » .

وهنا تظهر بوضوح آثار التربية الإسلامية العالية التي تمت على يد رسول الله ﷺ لتلامذته من الصحابة رضي الله عنهم حيث خاطبت فاطمة أخاها بهذه الكلمات القوية فحكمت عليه بأنه نجس وعللت هذا الحكم بأنه لايزال على دين قومه الذي هو الشرك ، فلم تجامله في دينها ولم تفرِّط في قدسية كتاب الله تعالى من أجل أن تقي نفسها وزوجها .

ومع أنها قامت بتمثيل ما يجب عليها تجاه تعظيم كلام الله تعالى فإنها قامت أيضاً بواجبها نحو الدعوة وهي التي طمعت في إسلام أخيها فخاطبته بنداء الأخوة أخوة النسب لعل ذلك يجذبه إلى الإسلام ويخفف من وقع الحكم الذي أصدرته عليه .

« قال : فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها - طه - فقرأها فلما قرأ منها صدراً - يعني أولها - [1] قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » .

---

(١) جاء في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه عند أبي يعلى رحمه الله : إلى قوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) الآية - المطالب العالية ٤/ ١٩٣ - ١٩٤ رقم ٤٢٨١ .

وهذه هي الآيات التي قرآها : ﴿ طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ② إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ④ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ⑤ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⑥ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ⑧ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ⑨ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ⑩ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ⑪ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ⑫ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ⑬ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ⑮ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ .

لقد تحمل عمر وقع ذلك الحكم الذي سمعه من أخته مع شدته لما أراد الله تعالى له من الهداية فقام فاغتسل .

ولقد أخذته روعة كلام الله تعالى وسرى الإيمان في كيانه حتى تبدل إنساناً آخر ، بعدما تهيأ نفسيا قبل ذلك وأقبل على تلقي كلام الله تعالى وقد تحرر من أوهام الجاهلية التي طالما غشت على قلبه وحجبته عن التفكير في مجرد سماع الوحي الإلهي ، فاثنى على كلام الله تعالى بهذا الثناء البالغ الذي يدل على تأثره به وهيمنته على مشاعره .

وهنا يأتي دور معلم الأسرة خباب بن الأرتّ رضي الله عنه الذي حجبه عن المجابهة كونه من المستضعفين في مكة : « قال : فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : ياعمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فاللهَ اللهَ ياعمر »[1] .

---

(١) وقد أخرج هذا الإمام الترمذي في سننه ، كتاب المناقب باب مناقب عمر ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر ، قال الحافظ ابن حجر : وصححه ابن حبان أيضاً وفي إسناده خارجة بن عبد الله صدوق فيه مقال لكن له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الترمذي أيضا ومن حديث أنس (تحفة الأحوذي ١٠/١٦٨) . وأخرجه الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام » ، فجعل الله دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب فبنى به الإسلام وهدم به الأوثان - ذكره الهيثمي وقال : رجاله رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق - مجمع الزوائد - ٩ / ٦١ - .
هذا وقد أخرج الحاكم من ثلاث طرق عن عبدالله بن عمر وعن عبد الله بن عباس وعن عائشة رضي الله عنهم أن الدعوة كانت لعمر خاصة ، وحكم على هذه الطرق بالصحة

وكانت هذه دفعة أخرى لعمر رضي الله عنه ليُقْدم إلى الإسلام ، فما أكرم وما أعظم أن يكون إسلامه استجابة لدعوة رسول الله ﷺ لا لنفعه الخاص فقط وإنما ليكون إسلامه نصراً للإسلام وتأييداً لدعوته .

ولذلك لم يتردد عمر لحظة واحدة بل قال : « فدلَّني ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ، فقال : يارسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : فَأْذَنْ له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه » .

ومن هذا المشهد تظهر شجاعة حمزة رضي الله عنه ورباطة جأشه وكان قد أسلم قبل ذلك بثلاثة أيام فقط .

فقال له رسول الله ﷺ : ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه

ووافقه الذهبي - المستدرك ٣/ ٨٣- . =

= ولعل الدعوة كانت لأحد الرجلين ثم خص النبي ص عمر لكونه يرجو إسلامه ، ولاشك أن الفرق بين الرجلين واضح ، وذلك لظهور العداوة الشديدة من أبي جهل المبنية على الحسد والحقد مع اعترافه بأن ما دعاإليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحق ، بينما كان عمر ملتزماً بجاهليته لكونه يرى الحق مع ما ورثه من الآباء والاجداد ، وفرق كبير بين من يلتزم بالباطل وهو يرى أنه على الحق وبين من يلتزم بالباطل وهو يعرف أنه باطل . وإن كانت الهداية ممكنة في كلا الصنفين .

رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ بحُجْزَته [1] أو بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فو الله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة » .

وهنا تبدو شجاعة رسول الله ﷺ التي لانظير لها فهو لم يتّق الخطر بأصحابه بل قام وسبقهم ليقيهم بنفسه .

وهكذا تظهر عظمة الرجال وسُمُوُّهم ، فرسول الله ﷺ لم يقابل رجلاً عادياً ، وإنما قابل رجلا ملأ الرعبُ منه قلوب الناس في مكة ، واشتهر في أوساطها عداوته المتناهية للإسلام وأهله ، وقد أقبل متوشحاً سيفه ، نحو دار يجتمع فيها المسلمون سرّاً ، فكل الدلائل تدل على أنه قد أقبل يريد شرّاً برسول الله ﷺ ومن معه ، ومع ذلك ينهض له رسول الله ﷺ مفتدياً أصحابه بنفسه .

وتتم المفاجأة الكبرى حينما يقول عمر رضي الله عنه « يارسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله ، قال : فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم » .

وتغمر الفرحة قلوب المؤمنين ، ويظهر أثر إسلام عمر على سلوكهم حيث قويت شخصيتهم وأظهروا شعائر دينهم ، وكمل

اعتزازهم الظاهر بدينهم بعدما قطعوا شوطاً في ذلك بإسلام حمزة رضي الله عنه ، ويبين ذلك ما جاء في ختام هذه الرواية : « فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ ، وينتصفون بهما من عدوهم » [1] .

وكان إسلام عمر فتحاً كما قال عبد الله بن مسعود ، حيث خرج الصحابة من ذلك البيت الذي اجتمعوا به ليأمنوا على أنفسهم بعد ماكان من حادثة اعتداء المشركين الجماعي على المسلمين ، على إثر خطبة أبي

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٦ - ٣٦٠ .

وأخرجه ابن سعد من حديث إسحاق الأزرق قال : أخبرنا القاسم بن عثمان البصري عن أنس بن مالك رضي الله عنه وذكر نحوه - طبقات ابن سعد ٣/ ٢٦٧ -

وكذلك أخرجه الحاكم والبيهقي بهذا الإسناد وذكرا نحوه ، وسكت عنه الحاكم والذهبي - المستدرك ٤/ ٥٩ ، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢١٩ - .

وأخرجه أيضاً أبو يعلى من حديث أنس بن مالك - المطالب العالية ٤/ ١٩٣ رقم ٤٢٨١ -

وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من طريق أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده - فضائل الصحابة تحقيق الدكتور وصي الله ١/ ٢٨٥ - ٢٨٦ -

وأخرجه البيهقي من هذا الطريق - دلائل النبوة ٢/ ٢١٦ - وذكر الذهبي هذه الرواية وسكت عنها ، ثم ذكر رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما وحكم على إسنادها بالضعف - تاريخ الإسلام / السيرة / ١٧٧ - ١٨٠ - .

وقال الحافظ ابن حجر : وقد ورد سبب إسلامه - يعني عمر - مطولاً فيما أخرجه الدارقطني من طريق القاسم بن عثمان عن أنس - وذكر ملخصاً للرواية السابقة - ثم قال : وروى أبو جعفر بن أبي شيبة نحوه في تاريخه من حديث ابن عباس - فتح الباري ٧/ ٤٨ -

فهذه الروايات الثلاث المروية عن أسلم وأنس وابن عباس رضي الله عنهم تقوي رواية ابن إسحاق المذكورة .

بكر الدعوية كما سبق ، فلم يُخرج الصحابة من ذلك البيت ويجعلهم يأمنون بعض الأمْن إلا إسلام عمر .

وفي تكبير رسول الله ﷺ حينما أعلن عمر رضي الله عنه إسلامه دليل على استحباب التكبير عند الفرح ، فالله أكبر من كل شيء فلا يعظَّم غيره ولايقدس سواه ، تباركت أسماؤه وجلت صفاته .

هذا وقد أخرج أبو نعيم رحمه الله خبر إسلام عمر رضي الله عنه من طريق آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما وذكر نحو خبر ابن إسحاق ، وفيه أنه لما قرأ الآيات الأولى من سورة طه قال : فتعظَّمت في صدري وقلت : منْ هذا فرت قريش ، ثم شرح الله صدري للإسلام فقلت : لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، قال : فما في الأرض نسمة أحب إليّ من رسول الله ﷺ ، قلت : أين رسول الله ﷺ ؟ قالت - يعني أخته فاطمة - : عليك عهد الله وميثاقه أن لاتجبهه بشيء يكرهه، قلت : نعم ، قالت : فإنه في دار الأرقم بن أبي الأرقم (1) .

ومن هذه السرعة في تحول عمر واستجابته للإسلام حينما سمع القرآن نفهم مدى الضغط الرهيب الذي كان زعماء مكة آنذاك يمارسونه على الناس حتى طوقوهم بذلك الحجر الفكري الذي حَرَمَ هذا العبقري الألمعي من سماع القرآن طيلة تلك السنوات ، فما أن لامست روعة

---

(1) دلائل النبوة لأبي نعيم / 79 .

القرآن الكريم حسه المرهف حتى اهتز كيانه ، وانتعش وجدانه ، فأعلن كلمة الحق مدوِّية في الفضاء بكل عزة وإباء ، وهاجم الباطل بكل شجاعة وإقدام واستفز رؤوس الطغيان واستهان بهم ، لأنه يعلم يقينا أنهم كانوا وراء بقائه سابقاً على الضلال ، وبقاء كل من تجرد من الهوى المنحرف على ضلاله بما يقومون به من الإعلام المضلل والإرهاب الفكري المنظم .

كما نلحظ في هذا الخبر دقة التربية التي تلقاها الصحابة رجالاً ونساءً ، فحينما سأل عمر رضي الله عنه أخته عن مكان النبي ﷺ كانت مخيلتها تدور بين أمرين : الأول : وجوب حماية النبي ﷺ وعدم جواز إفشاء أسرار المؤمنين ، والأمر الآخر : رغبتها الملحة في هداية أخيها إلى الإسلام بعدما قرأت في وجهه وفي سلوكه علامات الهداية والإقبال ، فكان أن جمعت بين الأمرين بإخباره عن مقر النبي ﷺ بعد أخذ العهد عليه بأن لايجبهه بشيء يكرهه .

كما نلحظ مثالاً لما كان يتصف به العرب آنذاك من التحلي ببعض مكارم الأخلاق كالصدق والوفاء والأمانة مما جعلهم أهلاً لحمل هذه الرسالة العظيمة ، وقد استقر في ذهن فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها اتصاف أخيها بهذه المعاني فإنها قد وثقت في أنه لن ينقض عهده ذلك فأقدمت على ما أقدمت عليه من إفشاء السر لتلك المصلحة العظيمة .

هذا ولما أسلم عمر سعى في إعلان إسلامه ليغيظ الكفار ولينال من الأذى على أيديهم مثل ما ناله إخوانه المسلمين من قبل ، ويصور ذلك ما أخرجه ابن إسحاق قال : حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن بعض آل عمر أو بعض أهله قال : قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أيَّ أهل مكة أشد لرسول اله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت ، قال قلت : أبو جهل ، - وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة [1] - قال فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، قال : فخرج إليّ أبو جهل فقال : مرحبا وأهلاً يا ابن أختي ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله ورسوله محمد وصدقت بما جاء به ، قال : فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله وقبح ماجئت به [2] .

وهكذا بلغ من قوة إيمان عمر أن تحدى بإسلامه أقوى رجل في قريش وأشدهم عداوة للإسلام ، وكان بإمكانه لو أراد السلامة لنفسه أن يستخفي بإسلامه ، أو على الأقل أن يترك الأمر حتى يعلم الكفار عن ذلك بالتدريج .

وحينما لم يصنع أبو جهل معه شيئاً ولم يعلن هذا الخبر بحث عن رجل آخر ليقوم بإعلان هذا الخبر .

قال ابن إسحاق : وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر

---

(١) يعني أن حنتمة أمه وهي أخت أبي جهل .
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٤ .

قال : لما أسلم أبي عمر قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجمحي ، قال : فغدا عليه ، قال عبد الله بن عمر : فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له : أعلمت ياجميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد ؟ فو الله ما راجعه حتى قام يجر رداءه ، واتبعه عمر واتبعت أبي ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - : ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

قال : ويقول عمر من خلفه : كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه ، حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، قال وطَلَحَ[1] فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

قال : فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبَرة وقميص موشًّى ، حتى وقف عليهم ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، قال : فمه ؟ رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل ، قال : فو الله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه .

---

(١) يعني تعب .

قال : قلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ قال : ذلك أي بني العاص بن وائل السهمي [1] .

وهكذا نجده رضي الله عنه يعلن إسلامه أمام الملأ من قريش وهو يعلم أنهم سيجتمعون على ضربه وربما قتلوه لكثرتهم ولم يكن في توقعه أن يأتي خاله العاص بن وائل السهمي لينقذه ، وذلك لأن إيمانه كان قوياً فهانت عليه نفسه من أجل إظهار عزة الإسلام وإرهاب الكافرين .

هذا وقد جاء في بعض الروايات أن عمر رضي الله عنه طلب من رسول الله ﷺ الظهور الجماعي بدعوة الإسلام إعزازاً لهذا الدين وتحدياً للمشركين .

ومما جاء في ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الحافظ أبي الحسين خيثمة بن سليمان الأطرابلسي من حديث عائشة رضي الله عنها قالت بعد أن ذكرت حادثة هجوم الكفار على المسلمين وعلى أبيها خاصة ، التي سبق ذكرها[2] : واقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهراً

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٢ .
وقد أخرج الإمام البخاري هذا الخبر مختصراً - صحيح البخاري رقم ٣٨٦٥ ، كتاب مناقب الأنصار (الفتح ٧/ ١٧٧) - .
وذكره الهيثمي من رواية الطبراني في الأوسط وقال : ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٩/ ٦٥- .
وكذلك أخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٨٥ - .
وذكره الحافظ ابن كثير وقال : وهذا إسناد جيد قوي - السيرة لابن كثير ٢/ ٣٩ - .
(٢) انظر ص : ١٢١-١٢٢ .

وهم تسعة وثلاثون رجلاً ، وقد كان حمزة أسلم يوم ضُرب أبو بكر ، ودعا رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب أو لأبي جهل ابن هشام ، فأصبح عمر وكانت الدعوة يوم الأربعاء فأسلم عمر الخميس ، فكبر رسول الله ﷺ وأهل البيت تكبيرة سُمعت بأعلى مكة ، وخرج أبو الأرقم - وهو أعمى كافر - وهو يقول : اللهم اغفر لبَنِيَّ غير الأرقم فإنه كفر .

فقام عمر فقال : يارسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق ويظهر دينهم وهم على الباطل ؟ قال : ياعمر إنا قليل وقد رأيت مالقينا ، فقال عمر : فو الذي بعثك بالحق لايبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان .

ثم خرج فطاف بالبيت ثم مر بقريش وهي تنتظره فقال أبو جهل بن هشام : يزعم فلان أنك صبوت ؟ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فوثب المشركون إليه ، ووثب على عتبة فبرك عليه وجعل يضربه وأدخل إصبعه في عينيه فجعل عتبة يصيح فتنحى الناس ، فقام عمر فجعل لايدنو منه أحد إلا أخذ بشريف ممن دنا منه حتى أعجز الناس ، واتبع المجالس التي كان يجلس فيها فيظهر الإيمان .

ثم انصرف إلى النبي ﷺ وهو ظاهر عليهم ، قال : ما عليك بأبي وأمي والله ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف .

فخرج رسول الله ﷺ وخرج عمر أمامه وحمزة بن عبد المطلب حتى طاف بالبيت وصلى الظهر مؤَمَّنا ، ثم انصرف إلى دار الأرقم ومعه عمر ، ثم انصرف عمر وحده ، ثم انصرف النبي ﷺ [1] .

هذا وماجرى من عمر من تخصيص مزيد من الهجوم على عتبة بن ربيعة يعتبر انتقاماً منه لما صنعه عتبة قبل ذلك بأبي بكر كما تقدم .

وبهذه المعركة التي صارع بها عمر وحده مجموعة من المشركين أثبت أن شأن الكفار ضعيف وأنه بإمكان المسلمين أن يُظهروا دينهم في وسط مجامع الكفار .

وقد جاء في آخر رواية أبي نعيم السابقة زيادة تفصيل لما جرى من عرض عمر على رسول الله ﷺ الخروج وقيامهم بذلك حيث جاء فيها «قلت : يارسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متم وإن حييتم ، قال قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ، فأخرجناه في صفين : حمزة في أحدهما وأنا في الآخر ، له كديد ككديد الطحين [2] حتى دخلنا المسجد ، فنظرَتْ إليَّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٣٠ .

(٢) الكديد التراب الناعم فإذا وطيء ثار غباره ، أراد أنهم كانوا في جماعة وأن الغبار كان يثور من مشيهم - النهاية ٤/ ١٥٥ - .

مثلها ، فسماني رسول الله ﷺ الفاروق ، وفرق الله بين الحق والباطل (١) .

وهكذا تقوى الصحابة بإسلام عمر بعد إسلام حمزة رضي الله عنهم فخرجوا جماعة إلى الحرم ، وما كانوا قبل ذلك يخرجون إلا فرادى ، بل كان الكثير منهم لايتمكنون من الصلاة في الحرم كما جاء في قول ابن مسعود رضي الله عنه السابق « ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر » .

هذا وإن موافقة النبي ﷺ على ذلك الخروج الجماعي من أجل إظهار شعائر الإسلام دليل على أنه كان ينتظر ذلك اليوم الذي يتمكن فيه من إظهار عزة الإسلام وقوة المسلمين من غير أن يتعرضوا للأذى ، فلما عرض عليه عمر هذا الأمر وافق على ذلك ، حيث انضم إلى صف المسلمين بَطَلان لكل واحد منهما مكانة كبيرة في مجتمع مكة المكرمة ، وهذا دليل على أن الأصل هو إظهار شعائر الإسلام والاجتماع على ذلك ليكون أبلغ في الدعوة ، وأكثر ارهاباً للأعداء ، وذلك لأن كثيرين في ذلك المجتمع مقتنعون بالإسلام ولكنهم ينتظرون بإسلامهم ظهور قوة المسلمين وانخفاض قوة الكافرين حيث إنهم لم يصلوا من القناعة إلى حد التضحية والبذل في سبيل الله تعالى .

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٧٩ .

ولهـذا فإن رسـول الله ﷺ لم يعـتبر عـرض عـمر هذا تعـجلا في الظهور الجماعي لأن أمة المسلمين قد بلغت بانضمام هذين العملاقين إلى صفها حدا يمكّنها من مقاومة زعماء الباطل لو فكروا في صد ذلك الجمع بالقوة .

وهكذا رأينا تأثر المشركين واغتمامهم حينما رأوا المسلمين يخرجون لإظهار دينهم مجتمعين ، وقد كان النبي ﷺ يخرج كل يوم إلى الحرم ، فيعلن صلاته ويجهر بقراءته ، ولم يكن لخروجه وإعلانه نفس الأثر الذي كان للجماعة مع أنه رسول الله ، وهذا يدلنا على أهمية اجتماع المسلمين لإظهار دينهم وإنكار المنكر ، فإن الأعداء لايبالون بالأفراد الذين ليسوا في جماعة مهما علا ذكرهم واشتهر أمرهم لأنهم لن يغيروا من الأمور المنكرة شيئاً يذكر ، ويستطيع الأعداء أن يحتووهم أحياناً وأن يجابهوهم أحياناً أخرى حتى يضعفوا وينتهي وجودهم .

ومن خروج النبي ﷺ يقود تلك الجماعة حينما أصبحت جماعة المسلمين قادرة على المجابهة السليمة . . من ذلك نستفيد وجوب اجتماع المسلمين لإظهار وجود الإسلام واعزازه وإنكار المنكر ، وذلك في المنكرات الظاهرة التي تحميها بعض القوى المهيمنة ولايستطيع الأفراد أن يغيروها .

ومما يؤيد ثبوت خروج النبي ﷺ مع أصحابه ما أخرجه الحاكم من حديث عثمان بن عبد الله بن الأرقم عن جده الأرقم وكان بدرياً ، وكان

رسول الله ﷺ أوى في داره عند الصفا حتى تكاملوا أربعين رجلاً مسلمين ، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، فلما كانوا أربعين خرجوا إلى المشركين .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي [١] .

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام أحمد والطبراني أخرجاه وقال : ورجال الطبراني ثقات [٢] .

وهكذا تم إسلام عمر رضي الله عنه ، وانطلق من تلك اللحظة في العمل لخدمة الإسلام متفانياً في الدفاع عنه معليا من شأن المسلمين ، ومازال بعد ذلك مجاهداً في سبيل الله واهباً نفسه بكل ما تملك من طاقات لخدمة الإسلام والمسلمين حتى قتل شهيداً في سبيل الله تعالى في آخر خلافته .

وكان كما وصفته عائشة رضي الله عنها : « كان والله أحوذيا نسيج وحده ، كأنما خلق للإسلام ، قد أعدَّ للأمور أقرانها » فرضي الله عنه وأرضاه .

* * *

---

(١) المستدرك ٣/ ٥٠٤ .

(٢) مجمع الزوائد ٤/ ٥ .

١٥ - مثل من الصبر على الشدائد

(حصار الشعب)

لقد غاظ المشركين إسلام بعض أشراف مكة وزعمائها خاصة حينما أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حيث امتنع بهم المسلمون وعز بهم الإسلام ، فأقدم المشركون على أسوء وأخطر محاولة فكروا فيها وهي القضاء على حياة النبي ﷺ واجتمع أمرهم على ذلك .

وكان من أثر ذلك أن قام أبو طالب بتأكيد حماية النبي ﷺ ، فأمر بني عبد المطلب بالقيام بذلك داخل شعبهم المسمى شعب أبي طالب ، ودخل معهم في هذه الحماية بقية بني هاشم وبني المطلب مسلمهم وكافرهم ، فلما رأى المشركون ذلك قاموا بمقاطعتهم اقتصادياً واجتماعياً .

وقد أخرج الخبر في تفاصيل ذلك الإمام البيهقي من طريقين عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال : « ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهدُ ، واشتد عليهم البلاء ، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية .

فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يُدْخلوا رسول الله ﷺ شعبَهم ، ويمنعوه ممن أراد قتله ، فاجتمعوا على

(٢) مجمع الزوائد ٤/ ٥ .

(١) المستدرك ٣/ ٥٠٤ .

(٢) مجمع الزوائد ٤/ ٥ .

ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ واجتمعوا على ذلك ، اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لايجالسوهم ولايبايعوهم ولايَدخُلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق أن لايقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً ولا تأخذهم به رأفة حتى يسلموه للقتل .

فلبث بنو هاشم في شعبهم يعني ثلاث سنين [١] واشتد عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركون طعاماً يَقْدمُ مكة ولابيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفكَ دمِ رسول الله ﷺ .

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكراً به واغتياله ، فإذا نوّم الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه .

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن بني قصي ، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساؤهم من بني هاشم ،

---

(١) وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة كما جاء في إحدى روايات ابن سعد - طبقات ابن سعد ١/ ٢١٠ فيكون دخولهم في العام السابع .

ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه ، وبعث الله عز وجل على صحيفتهم التي المكرُ فيها برسول الله ﷺ الأَرَضَة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق .

ويقال كانت معلقة في سقف البيت ، ولم تترك اسماً لله عز وجل فيها إلا لحسته ، وبقي ما كان فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم ، وأطلع الله - عز وجل - رسوله على الذي صنع بصحيفتهم ، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب .

فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبني ، فانطلق يمشي بعصابة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد ، وهو حافل من قريش فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك ، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوا ليعطوهم رسول الله ﷺ .

فتكلم أبو طالب فقال : قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح ، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها ، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لايشكُّون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم ، فوضعوها بينهم وقالوا : قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع

قومكم ، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم .

فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نَصَفٌ ، إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني : أن الله عز وجل بَرِئَ من هذه الصحيفة التي في أيديكم ومحا كلَّ اسم هو له فيها ، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينابالظلم (١) ، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا ، فو الله لا نسلمه أبداً حتى نموت من عند آخرنا ، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم .

قالوا : قد رضينا بالذي يقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها ، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا : والله إن كان هذا قط إلا سحراً من صاحبكم ! فارتكسوا وعادوا بشرِّ ما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين رهطه ، والقيام بما تعاهدوا عليه .

فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب : إن أَوْلَى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون ؟ فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا ، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد

---

(١) ورد في رواية ابن هشام عكس ذلك وهو أن الأرضة أكلت الصحيفة ماعدا « باسمك اللهم » – سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٥ – ولكن ذكر الإمام الزرقاني أن الرواية الأولى أثبت وهي رواية

صحيفتكم وهي في أيديكم ، طمس الله ما كان فيها له من اسم [1]، وما كان من بغي تركه ، أفنحن السحرة أم أنتم ؟ .

فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف وبني قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء من بني هاشم ، منهم أبو البَخْتَري والمطعم بن عدي وزهير بن أبي أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو ، وكانت الصحيفة عنده ، وهو من بني عامر بن لؤي في رجال من أشرافهم ووجوههم : نحن براء مما في هذه الصحيفة ، فقال : أبو جهل : هذا أمر قُضي بليل [2] .

وقال الإمام البيهقي بعد رواية هذا الخبر : وهكذا ذكر شيخنا أبو عبد الله الحافظ رحمه الله هذه القصة عن أبي جعفر البغدادي عن محمد بن عمرو بن خالد عن أبيه عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير [3] .

وقد ذكر البيهقي هذه الرواية لتقوية الرواية السابقة حيث إنها مرسلة لأن الزهري لم يذكر من روى عنهم من الصحابة .

وأخرجه أبو نعيم من طريق أبي الأسود عن عروة بن الزبير قال : لما أقبل عمرو بن العاص من الحبشة من عند النجاشي إلى مكة قد أهلك

موسى بن عقبة وعروة بن الزبير - شرح المواهب اللدنية ١/ ٢٩٠ - .

(١) يعني من أسماء الله تعالى .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١١ - ٣١٤ .

الله صاحبه ومنع حاجته اشتد المشركون على المسلمين كأشد ما كانوا ، حتى بلغ [بالمسلمين] (١) الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، وعمد المشركون من قريش فأجمعوا مكرهم وأمرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية فلما رأى ذلك أبو طالب جمع بني عبد المطلب ، فأجمع لهم أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ، ويمنعوه ممن أراد قتله . . ثم ذكر مثل خبر موسى بن عقبة السابق (٢) .

وأخرج الإمام البيهقي رواية أخرى من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال : فلما مضى رسول الله ﷺ على الذي بعث به ، وقامت بنو هاشم وبنو المطلب دونه وأبوا أن يسلموه وهم من خلافه على مثل ما قومهم عليه ، إلا أنهم أنفُوا أن يُستَذلُّوا ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه ، فلما فعلت ذلك بنو هاشم وبنو المطلب وعرفت قريش أن لا سبيل إلى محمد ﷺ معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب أن لا يُنكحوهم ولا ينكحوا إليهم ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم ، وكتبوا صحيفة في ذلك وعلقوها بالكعبة ، ثم عَدَوْا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم ، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً .

---

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤ .

(١) ما بين القوسين مستدرك من كتاب الخصائص ، أفاده محققا الطبعة الثانية لدلائل النبوة .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني / ٩٢

ثم ذكر نحو خبر موسى بن عقبة ، إلا أن فيه من وصف ما تعرض له بنو هاشم وبنو المطلب أن أصوات صبيانهم تسمع من وراء الشعب وهم يتضاغون من الجوع [1] .

وأخرجه ابن هشام من روايته عن ابن إسحاق قال : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لايُنكحوا إليهم ولايُنكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولايبتاعوا منهم . .

ثم ذكر خبر الصحيفة إلى أن قال : فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيه الذي صنعوا قال أبو طالب :

ألا أبلغا عني على ذات بَيْننا [2] لُؤَيّا وخُصَّا من لؤيّ بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خُطَّ في أول الكتب
وأنّ عليه في العباد محبةً ولا خير ممن خصه الله بالحب

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢) يعني الخصومة والعداوة .

وأن الذي ألصقتُمُ من كتابكم ... لكُم كائن نحسًا كَراغية السَّقب (١)

أفيقُوا أفيقوا قبل أن يُحفر الثَّرى ... ويصُبح مَنْ لم يَجْن ذنبا كذي الذَّنب

ولا تَتْبعوا أمرَ الوُشاة وتَقْطَعوا ... أواصرَنا بعد المودّة والقرْب

وتَسْتجلبوا حَرْباً عَواناً ، وربما ... أمرّ على من ذاقه جَلبُ الحرب(٢)

فلسنا وربِّ البيت نُسَلم أحمداً ... لعزّاءَ من عض الزّمان ولا كَرْب(٣)

ولماّ تَبِنْ منّا ومنكم سَوالف ... وأيد أُثرّت بالقُسَاسيَّةَ الشُّهْب(٤)

بُمعْترك ضَيْق تُرى كسَر القَنا ... به والنسورَ الطُّخم يَعْكفن كالشِّرب (٥)

كأنّ مَجَال الخيل في حَجَراته ... ومَعْمَعة الأبطال مَعْركةالحرْب (٦)

أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أُزْرَه ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب؟

ولسنا نَمَلّ الحربَ حتى تَمَلّنا ... ولا نَشْتكى ما قد ينوب من النكب

ولكنّنا أهلُ الحَفائظ والنُّهى ... إذا طار أرواحُ الكماة من الرُّعب (٧)

---

(١) يعني أن تلك الصحيفة ستكون شؤما عليكم كشؤم ناقة صالح وولدها على ثمود حين عقروها ، والراغية هي الناقة والسقب ولدها :

(٢) عوانا أي مستمرة ، أي لاتتسببوا في وقوع حرب مستمرة ربما كان مذاقها مراً على من جلبوها

(٣) يعني لن نتركه يواجه سنة قاسيه من عض الزمان وشدته .

(٤) « تبن » يعني تنقطع ، والسوالف جمع سالفة وهي صفحة العنق و « أثرت » يعني قطعت ، و«القساسية» السيوف منسوبة إلى قاس مكان فيه معدن الحديد ، و « الشهب » الصقيلة اللامعه .

(٥) الطخم جمع أطخم وهو الذي في لونه سواد ، والشرب جماعة الشاربين .

(٦) المجال المكان الذي تجول فيه الخيل ، والحجرات النواحي ، والمعمعة صوت الأبطال في المعركة .

(٧) الحفائظ جمع حفيظة وهي الغضب ، والنهي جمع نهيه وهي العقل ، والكماة جمع كمى وهو الشجاع الذي يتكمى في سلاحه أي يستتر فيه .

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتى جُهدوا ، لايصل إليهم شيء إلا سرّا مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش .

وقد كان أبو جهل بن هشام - فيما يذكرون - لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهي عند رسول الله ﷺ ، ومعه في الشعب ، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد فقال : مالك وله . فقال : يحمل الطعام إلى بني هاشم ، فقال له أبو البختري : طعامٌ كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أنه يأتيها بطعامها ! خَلِّ سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ له أبو البختري لَحْيَ بعير فضربه به فشجه ، ووطئه وطأ شديداً ، وحمزةُ بن عبد المطلب قريبٌ يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه ، فيشمتوا بهم ، ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسرّا وجهاراً ، مُبادياً بأمر الله لايتقي فيه أحدا من الناس (١) .

في هذا الخبر تصميم من الكفار على قتل النبي ﷺ بعدما يئسوا من القضاء على دعوته ، وهكذا أهل الباطل لايتورعون عن التصفية الجسدية

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٤ - ٣٦٨ .

لدعاة الحق إذا تمكنوا من ذلك ، وذلك لعجزهم الفاضح عن مقاومة أهل الحق بالحجة والمنطق .

والقوة إذا لم يصاحبها دعوة حق فهي حماقة ورعونة لأن صاحبها -والحال هذه - ليس أمامه مبدأ سليم يدافع عنه ، ولاضوابطُ محكمة يرجع إليها ، فأما حينما تكون القوة مع أهل الحق فإنهم يستخدمونها عند الضرورة للدفاع عما يدعون إليه من الحق ، وإزالة العوائق التي تحول دون انتشاره ، ويتقيدون بضوابط إلهية لايمكن أن يتطرق إليها شيء من الظلم والعدوان .

وهكذا يلجأ أهل الباطل في كل زمن إلى القوة والعنف حينما تكون حجتهم ضعيفة ومهزوزة ، فيبطشون بأهل الحق إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، لأنهم لايستطيعون الوقوف معهم في مجال الحجة والبيان ، وهم يدركون جيداً أن أي محاولة منهم لطرح القضايا الفكرية على بساط البحث والنقاش سيئُول في النهاية لغير صالحهم ، لأنهم لم يُشغلوا أنفسهم منذ نعومة أظفارهم بالتأمل الجاد والبحث عن حقائق الأمور ، وإنما بحثوا عن أسهل الطرق وأسرعها للسيطرة والتمكن في الأرض فسلكوه ، وكوَّنوا لأنفسهم عقيدة يرون أنها تحمي نظامهم وتكفل لهم سيادتهم .

وقد تكون هذه العقيدة مزيجاً من الحق والباطل ، فليس في

مقدورهم أن يناقشوا أقواماً وهبوا أنفسهم لفهم عقيدتهم الحقة وبيانها والدفاع عنها ، فكان الطريق القويم في نظرهم أن يتفادوا الدخول مع دعاة الحق في نقاش علني يعلمون سابقاً نتيجته المروعة لهم ، فلم يبق في نظرهم إلا وأد دعاة الحق مع دعوتهم ماداموا في حال ضعف قبل أن يعلو شأنهم ويعظم خطرهم ، وما دام هؤلاء الطغاة مدعومين في مبادئهم الفاسدة من قوى الباطل .

وحينما اعتصم المسلمون بشعب أبي طالب لم يتركهم الكفار وشأنهم بل حاصروهم اقتصادياً ، وضيقوا عليهم حتى انقطعت الموارد عنهم ، وهذا سلاح خطير يستعمله أهل الباطل ضد أهل الحق ، حيث يعملون دائماً على إضعافهم من الناحية المالية ، والحيلولة بينهم وبين الموارد التي ترفع اقتصادهم ، وتمنحهم شيئاً من القوة والمنعة .

وإن بقاء المسلمين ثلاث سنوات داخل الشعب مع ذلك الحصار الشديد الذي ألجأهم إلى أكل أوراق الشجر ، ورفع أصوات أبنائهم بالبكاء من الجوع ، وعزلهم تماماً عن المجتمع . . إن بقاءهم على هذا الوضع دليل على قوة إيمانهم بقضاء الله وقدره ، وتجملهم بالصبر على الأذى .

هذا خبر من أسلم من بني هاشم وبني المطلب ، أما بقية المسلمين من قريش فإن منهم من هاجر إلى الحبشة ومنهم من بقي في مكة ،

وهؤلاء وقعوا تحت حصار المشركين ورقابتهم وأذاهم كما جاء في الرواية السابقة التي رواها يونس بن بكير عن ابن إسحاق وفيها « ثم عدوا – يعني المشركين – على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم» .

وإنهم بقيادة رسول الله ﷺ لأعلى مثل يمكن أن يَقتدي به كل من حوصر وسجن من المسلمين من أجل إيمانهم بالله تعالى ودعوتهم إلى سبيله .

وإنه لمما يطلب من المسلم في حال النكبات والشدائد أن يرضى بقضاء الله وقدره ، وأن يصبر صبراً جميلاً ، وأن يكون مستسلماً لله تعالى بحيث لايقوم أثناء المحنة بأي عمل مخالف للإسلام ، كأن يحني رأسه للطغاة ، أو يتنازل عن شيء من دعوة الحق التي يمثلها ، أو أن يهبط مستواه في مخاطبة ظالميه أو من تقاعسوا عن نصرته .

ثم هو مكلف بأن يعمل جهده بالأسباب المشروعة للخروج من المحنة ، وأن يكل أمره قبل ذلك كله إلى الله تعالى ، مستحضراً عظمته وجلاله وهيمنته عليه وعلى ظالميه ، وأن يكون دائماً حسن الظن بالله تعالى عظيم الأمل بقرب الفرج ، شديد الفزع من الذنوب والمخالفات التي تصرف عنه رحمة ربه جل وعلا .

فإذا فعل ذلك فإن الله سبحانه بمَنِّه وكرمه يكشف ضره وييسر له

أمره ، ويخرجه من محنته ، كما أخرج نبيه ﷺ والمؤمنين معه من محنة الحصار في الشعب ، وذلك بتسليط الأرضة على صحيفة المشركين ، وإعلام النبي ﷺ عمه أبا طالب ليخبر المشركين فتكون آية على صدقه ونبوته ، ثم بتسخير طائفة من زعماء المشركين ليعلنوا براءتهم من تلك الصحيفة الظالمة ، مما جعل المشركين ينقسمون إلى قسمين : قسم ظل معادياً للمسلمين متربصاً بهم الدوائر ، وقسم ظل معتدلاً نحوهم يحاول دفع الظلم عنهم وتأنيب الظالمين في مغامراتهم الكبيرة التي تسيء سمعة القبيلة بأسرها .

وقد كان ذلك من أهم أسباب خروج المسلمين من المحنة وعدم تكررها بنفس الحجم والمستوى .

هذا ومما يدل على أثر هذا الفريق المعتدل ما جاء في رواية الواقدي عند ابن سعد وفيها : وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم ، فيهم مطعم بن عدي ، وعدي بن قيس ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البَخْتَري بن هشام وزهير بن أبي أمية ، ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب ، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا ، فلما رأت قريش ذلك سُقط في أيديهم ، وعرفوا أن لن يسلموهم [١] .

ولقد كان بعض هؤلاء وقف مع المسلمين حتى في أثناء حصارهم في الشعب كما سبق في رواية ابن إسحاق من خبر حكيم بن حزام

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢١٠ .

وإيصاله الطعام إلى عمته خديجة رضي الله عنها ، وما كان من صراع بين أبي جهل وأبي البختري بن هشام حول هذا الأمر ، وقد كانت نهاية ذلك الصراع أن غلب أبو البختري في دفاعه عن المسلمين ولم يستطع أبو جهل منع حكيم بن حزام من إيصال ذلك الطعام داخل الشعب .

هذا وإن وقوف طائفة من المشركين مع المسلمين مبني على كون المسلمين جميعاً بقيادة النبي ﷺ كانوا يمتازون بمكارم الأخلاق كالصدق والوفاء والأمانة وبذل المعروف ، ومن يتصف بمكارم الأخلاق يكون موضع التكريم عند العقلاء الذين يقدرون مكارم الأخلاق ومن يتصف بها ، فكان العقلاء من قريش يكرهون ذلك الحصار ، ولكن الكلمة الأخيرة عند وقوع الخلاف تكون غالباً للغوغائية الميالين للبطش والانتقام .

وقد يسكت المنكرون على مضض ، ويمنعهم من الإنكار الخوف من نقمة الغوغائية وتسلطهم ، فلما حصلت تلك الآية الباهرة حيث أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى سلط الأرضة على صحيفة قريش وقام أبو طالب بتلك المفاوضة التي تقضي بنقض ميثاق الصحيفة إن كان كما أخبر ، أو بتسليم النبي ﷺ لهم إن كان على غير ما أخبر به ، ثم كان الأمر على ما أخبر به .. لما كان ذلك ونكص زعماء الكفر على أعقابهم واتهموا النبي ﷺ بالسحر تشجع أولئك المعتدلون فأعلنوا رأيهم بالبراءة مما جاء في تلك الصحيفة .

وهكذا كان تخلُّق المسلمين بمكارم الأخلاق سبباً في انجذاب بعض زعماء المشركين إليهم والوقوف في صفهم لأنه لابد أن يوجد في كل مجتمع من يقدِّرون مكارم الأخلاق وينحازون إلى أصحابها .

ولهذا ينبغي للدعاة في كل زمن أن يجتذبوا إلى صفهم من ليسوا معهم في دعوتهم ولكنهم معهم في تمثيل مكارم الأخلاق والدفاع عن المظلومين ، والنقد الهادف للطغيان ومظاهره وسائر مساوئ الأخلاق .

ولقد كان تفرق الكفار إلى حزبين مما صنعه الله تعالى لنبيه ﷺ ليكون تمهيداً لفترة المواجهة الصعبة التي تلت موت أبي طالب حيث كان عَقَبةً تحول بين كفار مكة وتنفيذ كثير مما يعزمون عليه يوم أن كان أمرهم جميعا ، فلما مات أبو طالب أصبح أفراد الحزب المعتدل يتولون التخفيف من حدة الحزب المتشدد المندفع نحو الانتقام .

وهكذا كانت مكيدة كفار مكة بذلك الحصار الاقتصادي وبالاً عليهم ، حيث كان انتصار النبي ﷺ في تلك المفاوضة في أمر الصحيفة سبباً في تفرقهم وضعفهم عن مواجهة المسلمين بالقوة لوجود فريق معتدل من الكفار يمانع في استعمال القوة ضدهم ، فكان وجود هذا الفريق المعتدل تعويضاً للنبي ﷺ عما فقده من حماية عمه أبي طالب ، إلى أن اجتمع أمرهم بعد ثلاث سنوات يوم أن اتفقوا في دار الندوة على قتل النبي ﷺ فأنقذه الله عز وجل وأمره بالهجرة إلى المدينة .

* * *

١٦ - انتصار رسول الله ﷺ للمظلومين

(خبر الإراشي والزبيدي)

لما كان رسول الله ﷺ يدرك أهمية إقرار العدالة في الأرض والانتصار للمظلومين ، فإنه كان يسارع إلى نجدة المظلومين وإنصافهم من ظالميهم لأنه يعلم أن ذلك يعتبر من معالم تطبيق الإسلام في الأرض ، وأن ذلك من أهم أسباب انجذاب الناس لفهم الإسلام والإيمان به .

ومن الأمثلة الرائعة لقيام النبي ﷺ بإنصاف المظلومين وإن كانوا غير مسلمين ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله قال : حدثني عبد الملك بن عبد الله ابن أبي سفيان الثقفي ، وكان واعية ، قال : قدم رجل من إراش[١] بإبل له مكة ، فابتاعها منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها .

فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس ، فقال : يامعشرقريش ، من رجل يؤديني[٢] على أبي الحكم بن هشام ، فإني رجل غريب ، ابن سبيل ، وقد غلبني على حقي ؟ قال : فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس - لرسول الله ﷺ وهم يهزءون به ؛ لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة - اذهب إليه فإنه يؤديك عليه .

---

(١) قال ابن هشام : ويقال : إراشة .

(٢) يعينني وينصفني وكأنه مأخوذ من الأداة التي يتوصل بها الإنسان إلى ما يريد .

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال : ياعبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قِبَلَهُ ، وأنا رجل غريب ابن سبيل ، وقدسألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه يأخذ لي حقي منه فأشاروا لي إليك فخذ لي حقي منه يرحمك الله ، قال : انطلق إليه ، وقام معه رسول الله ﷺ فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه ، فانظر ماذا يصنع .

قال : وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : محمد ، فاخرج إليّ ، فخرج إليه ، وما في وجهه من رائحة [1] ، قد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه ، قال : نعم ، لاتبرح حتى أعطيه الذي له ، قال : فدخل ، فخرج إليه بحقه فدفعه إليه . قال : ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وقال للإراشي : الحق بشأنك ، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي حقي .

قال : وجاء الرجل الذي بعثوا معه ، فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟ قال : عجباً من العجب ، والله ماهو إلا أن ضرب عليه بابه ، فخرج إليه وما معه روحه ، فقال : أعط هذا حقه ، فقال : نعم لايبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل فخرج إليه بحقه ، فأعطاه إياه .

---

(١) قال السهيلي : أي بقية من روح .

قال : ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا له : ويلك ! مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط ! قال : وَيْحَكُم ! والله ماهو إلا أن ضرب علي بابي ، وسمعت صوته فملئت رعباً ، ثم خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ، ما رأيت مثل هامته ولاقَصَرته [١] ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلني [٢] .

فهذا الخبر يحكي صورة من سلوك أهل الجاهلية في ظلم المستضعفين ومطلهم حقوقهم ، وهذا السلوك المنحرف ناتج عن خواء العقل من الوازع الديني الذي يترتب على الخوف من الله تعالى ورجاء ما عنده .

فالكفار خاوية قلوبهم من هذه العقيدة لأنهم لايؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر ، وإنما يؤمنون بالحياة الدنيا ، ويعتمدون في سلوكهم على نظرة المجتمع بما فيهما من قوة وضعف ، فيخضعون للأقوياء ، ويوفونهم حقوقهم كاملة ، ويهضمون حقوق الضعفاء لعدم مقدرة الضعفاء على الانتقام منهم .

---

(١) الهامة : الرأس ، والقصرة : أصل العنق .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٤١٠ ، وأخرجه أبو نعيم الأصبهاني من طريق ابن إسحاق وذكر نحوه -دلائل النبوة لأبي نعيم / ٦٧ - وكذلك اخرجه البيهقي من هذا الطريق - دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٩٣ - .

ولذلك رأينا في هذا الخبر أبا جهل يشتري الإبل من ذلك الأعرابي ولايوفيه أثمانها ، لعلمه بضعفه وعدم مقدرته على استخلاص حقه منه.

ونجد في هذا الخبر صورة أخرى من صور الجاهلية حيث اغتنم أولئك الكفار شكوى ذلك الأعرابي ليتخذوا منها مادة للسخرية من رسول الله ﷺ وإحراجه ، حيث أشاروا على الأعرابي بشكوى أبي جهل إليه ﷺ ، وهم يعلمون عداوة أبي جهل الشديدة له ، وما يتصف به أبو جهل من العنف والحقد الدفين ، فأرادوا بهذه المشورة أن يوقعوا رسول الله ﷺ بأحد حرجين : إما أن يعتذر من الأعرابي وذلك إضعاف لموقفه في دعوته ، حيث لايسارع إلى نصرة المظلومين وهو الذي يدعو إلى ذلك ، وإما أن ينهض مع الأعرابي ثم يتلقى الرد القاسي والمعاملة العنيفة من أبي جهل ، وكلاهما أمر شاق على النفس ، ولكن النبي ﷺ لم يكن يبالي بما يواجهه في سبيل دعوته ، فلذلك نهض مع ذلك الأعرابي وانتصر له.

وفي مقابل ذلك نجد صورتين من السلوك الإسلامي :

الأولى : في اهتمام النبي ﷺ بتحدي المشركين وتفويت الفرص التي يحاولون بها أن يكيدوا للإسلام ودعاته ، فإن أولئك المشركين قد اغتنموا فرصة شكوى ذلك الأعرابي من أبي جهل لإحراج النبي ﷺ ،

ولكنه فَوَّت عليهم هذه الفرصة ، وكان إيجابيّاً في مقاومة مكيدتهم حيث سار مع ذلك الأعرابي وقضى له حقه ، ولاشك أن النبي ﷺ كان يعلم قصدهم من تحويل ذلك الأعرابي إليه ، إذ لو كانوا يريدون الشفاعة له لإنجاز حقه لأحالوه إلى زعماء قريش الذين يقدرهم أبو جهل ويخشى خلافهم .

وهكذا ينبغي للدعاة أن يبذلوا جهدهم في معرفة مكائد أعدائهم والحيلولة بينهم وبين تنفيذها حتى لايوهنوا موقفهم ويعزوا موقف أعدائهم .

والصورة الثانية : قيام رسول الله ﷺ بنصر المظلومين ، حيث قام مع ذلك الرجل انتصاراً له ليأخذ له حقه من ظالمه وهذا دليل على أهمية هذا الموضوع لأن النبي ﷺ قام معه وهو رجل كافر ، فكيف لو كان مسلماً ؟ ولأن الذي ظلم ذلك الرجل هو أعدى أعداء الإسلام ، وهو أبو جهل ، ومن المنتظر عادة أن يواجه النبي ﷺ بالعبوس والشتائم ، ومع ذلك قام ﷺ مع ذلك المظلوم حتى نصره وأخذ له حقه .

ويشبه هذاالخبر من ناحية وقوع أبي جهل في الظلم وقيام رسول الله ﷺ بالانتصار للمظلومين ما أخرجه أبو نعيم عن أبي يزيد المدني ، وأبي فرعة الباهلي ، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد معه رجال من أصحابه إذ أقبل رجل من زبيد يقول : يا معشر قريش كيف

تدخل عليكم المادَّة أو يُجْلب إليك جَلَبٌ أو يحل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم ؟ يقف على الحلَق حَلْقة حَلْقة ، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في أصحابه . فقال له رسول الله ﷺ : ومن ظَلمك ؟ فذكر أنه قد قدم بثلاثة أجمال كانت خير إبله فسامه أبو جهل ثُلثَ أثمانها ، ثم لم يَسُمْه بها لأجل أبي جهل أحد شيئاً ثم قال : فأكسد عليّ سلعتي وظلمني .

قال رسول الله ﷺ : وأين جمالك ؟ قال : هي هذه بالحزوَّرة [١] ، فقام رسول الله ﷺ وقام أصحابه فنظر إلى الجمال فرأى جمالا فُرْهاً فساوم الزبيدي حتى ألحقه برضاه ، فأخذها رسول الله ﷺ فباع جَملين منها بالثمن وأفضل بعيراً باعه وأعطى أراملَ بني عبد المطلب ثمنه ، وأبو جهل جالس في ناحية السوق لايتكلم ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال : ياعمرو إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الإعرابي فترى مني ما تكره فجعل يقول : لا أعود يا محمد لا أعود يا محمد فانصرف رسول الله ﷺ .

وأقبل أمية بن خلف ومن حضر فقالوا : ذَلَلْت في يدي محمد فإما أن تكون تريد أن تتبعه وإما رُعْب دَخلك منه . فقال : لا أتبعه أبداً إن الذي رأيت مني لمّا رأيت معه ، قد رأيت رجالاً عن يمينه وشماله معهم

---

(١) اسم مكان في مكة .

رماح يَشْرعونها إليّ لو خالفته لكانت إياها - أي لأتواْ على نَفْسي - [1] .

فهذا الخبر يبين لنا صورة من الظلم في المعاملات التجارية في حياة العرب في الجاهلية ، حيث يقوم بعض الأكابر بالتسلط على المستضعفين من التجار فيكسِّدون تجارتهم بحكم مالهم من جاه وسطوة في المجتمع .

فهذا الرجل الزبيدي يعرض إبله في سوق مكة فيسومها أبو جهل بثلث أثمانها ، ثم يتوقف الناس عن سومها مراعاة لأبي جهل أو خشية منه ، وهكذا يعمل أمثاله مع التجار الوافدين ، والويل للواحد من هؤلاء الأعراب إذا تعرض أولئك لسوم بضاعته ، فإنه - والحالة هذه - بين أمرين : إما أن يبيعهم بضاعته بثمن بخس ، وإما أن يضطر إلى إعادتها إلى مضارب قبيلته فيكون قد خسر سفرته تلك .

وهذا التصرف السيء يترتب عليه ضرر خاص بأصحاب البضائع المعروضة حيث تنزل أثمانها وضرر عام بسوق ذلك البلد حيث سيحجم التجار عن عرض تجارتهم بذلك السوق ، وبهذا يكون أبو جهل قد ظلم التجار ، كما أنه قد ظلم أهل مكة حيث سيكون سبباً في حرمانهم من رواج البضائع في بلدهم .

والظاهر أن هذا التصرف ليس خاصاً بأبي جهل ، إذ يبعد أن يقره

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٢٠ .

على ذلك كبار أهل مكة لو لم يكن لهم فائدة من السكوت عنه حيث يسكت عنهم إذا وقعوا في ظلم التجار الوافدين .

ولعل ذلك يفسر سكوت أهل السوق بمكة آنذاك حيث انساقوا وراء أبي جهل بتجاوزاته الظالمة إما رغبة أو رهبة .

ولكن ذلك الأعرابي لم يستسلم لذلك الظالم العنيف فأبى أن يبيعه إبله بذلك الثمن ، ولم يرجع بها ، بل قام باستنهاض همم أهل مكة لعلهم ينكرون ذلك الوضع الظالم ، وذكَّرهم بمصير بلدهم التجاري المشئوم إذا لم يغيروا ذلك المنكر .

ولكنه في نداءاته المتكررة لم يجد قوماً يرتفعون بشهامتهم وشجاعتهم إلى تغيير المنكر ، بل وجد أقواماً يعلو وجوه بعضهم العبوس والامتعاض من ذلك التصرف السيء مما يوحي بالإنكار الداخلي ، وهؤلاء هم الذين لايستفيدون من تلك التجاوزات التجارية ويخشون من ضررها على السوق ، وأقواماً لم يرفعوا بذلك رأساً ولم يبد على وجوههم شيء من التأثر كما هو المعتاد في مثل ذلك المجتمع ، إما لكونهم مستفيدين من تلك التجاوزات أو لكونهم لايهتمون بأمور المجتمع ، ولكن الجميع قد عقرت ألسنتهم وهيمن عليهم شعور ضاغط باحترام إرادة عمرو بن هشام السليط اللسان الذي يستطيع في نظرهم القاصر أن يوصل إليهم شيئاً من الضرر لو تعرضوا له .

ولكن هذا الأعرابي لم يخب أمله فواصل عرض الشكاية حتى مر برسول الله ﷺ ومعه أصحابه ، فعرض عليه تلك المظلمة الفاقرة ، فما كان من رسول الله ﷺ بشجاعته العالية وعدالته البالغة إلا أن هب مع ذلك المظلوم وقام بشراء تلك الإبل بالقيمة التي رضيها صاحبها ، وحذر أبا جهل من القيام باحتكار السوق مرة أخرى .

ولقد كان لهذا الموقف الكريم أثر في رفع الظلم عن ذلك الرجل وإنقاذ حقه الخاص ، كما أن له أثراً في إنقاذ الحق العام ، وذلك بحماية سوق مكة التجاري من التعرض لنقص الموارد من البضائع الذي يترتب على تجاوزات أبي جهل وأمثاله من المحتكرين الظالمين .

هذا وإن أمثال أبي جهل يوجدون في بعض المجتمعات الإسلامية حيث يقيمون تجارتهم ومعاملاتهم على احتكار الأسواق واستغلال حاجة البائع والمشتري ، فإذا اشتروا خفضوا الثمن ، وإذا باعوا رفعوه .

وتتكرر نفس الصورة ، حيث يحجم التجار عن الإنكار ويتقاعس أفراد المجتمع عن ذلك رغبة أو رهبة أو من باب عدم المبالاة وعدم الاهتمام بإصلاح المجتمع .

وإن انحدار المجتمع الإسلامي في باب التعامل إلى التشبه بأوضاع الجاهلية يعتبر نذير سوء وبادرة شر .

هذا وإن ما جرى للنبي ﷺ من معجزة بحماية الله إياه وحياطته بالملائكة عليهم السلام ليس هو المشجع الذي دفعه للقيام بهذا العمل النبيل في الخبرين السابقين ، لأنه لم يكن يعلم بحدوث ذلك إلا بعد وقوعه ، وإنما قام به لأنه عمل صالح يؤجر عليه ، وإن ناله شيء من الأذى فإن أجره يضاعف .

وإن هذا السلوك العالي يعتبر قدوة حسنة للمسلمين ليدركوا بأن لأخوانهم المسلمين عليهم حقوقاً لابد من أدائها ، ومن ذلك نصرة المظلوم ، ولقد أوضح النبي ﷺ هذا الحق في عدد من الأحاديث ، فمن ذلك قوله « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولايحقره » أخرجه الإمام مسلم [١] .

فمن حق المسلم على أخيه بمقتضى هذه الأخوة أن لايتعدى عليه بالظلم ، وأن لايدعه فريسة لظالمه ، بل يجب عليه إذا قدر على مساعدته أن ينقذه من الظلم .

وما أكثر وقوع المسلمين المستضعفين تحت سطوة الجبارين الذين نهبوهم حقوقهم واعتدوا على أبشارهم وأعراضهم وأموالهم ، وما أقل من ينجد هؤلاء المظلومين ويمد لهم يد العون والنصرة ! .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر ، رقم ٣٢ .

وإذا كان النبي ﷺ قد انتصر لرجلين كافرين بحكم أنهما مظلومان فكيف يتخاذل المسلمون عن نصرة إخوانهم في الدين الذين يحاول الجبارون أن يهضموهم حقوقهم ، سواء كان هؤلاء الجبارون من أصحاب السلطة أو ممن وقعوا في الظلم في غياب حكم العدل والإنصاف ؟! .

تم بحمدالله هذا الجزء ويليه الجزء

الثالث وبه تكتمل موضوعات

العهدالمكي .

* * *

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة